الحضارة العربية
إصدار دورى محكم

مركز
الحضارة
العربية
٤ ش العلمين . عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات . ت : ٣٤٤٨٣٦٨
ف : ٣١٤٨٠٤٢

نظم قواعد النحو العربى واختصارها

بحث فى

التقييم والتقويم

د . ممدوح عبد الرحمن
أستاذ النحو والصرف والعروض المساعد
جامعة المنيا

نظم قواعد النحو العربى واختصارها

بحث فى

التقييم والتقويم

د . ممدوح عبد الرحمن

أستاذ النحو والصرف والعروض المساعد

جامعة المنيا

إهــــداء

إلى معلمتى الأصيلة ...

السيدة / جليلة حسنين منصور

التــى علمتنــى أبجديـات الحيـاة والمعرفـة وشـمعتى التـى تضـئ لـى السبيل بعد أن أظلمت عيناى ، وشراعى الذى يشق لى الأجواء بعد أن ضاق الزحام بمنكبى وكهفى الذى أخفــى فيـه ضعفـى عـن أعيـن النـاس وساعدى وعونى يـوم لـم ينفعنـى جهدى واجتهـادى وصـديقتـى بعـد أن دفنت أصحابى فى التراب ومركبى الذى يقلنـى بعـد أن ضـاق الطريـق بقدمى .

فعدت كذى رجلين رجل صحيحة
ورجل رمى فيها الزمان فشلّت
وكنت كذات الظلع لما تحاملت
على ظلعها بعد العثار استقلت

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين الذى أنزل الكتاب بلسان عربى مبين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ، اللهم إنا نستعينك ونستهديك ونستغفرك ونعوذ بوجهك الكريم من التكلف لما لا نحسن ومن العجب بما نحسن .

١.الموضوع :

موضوع هذا البحث هو نظم قواعد النحو العربى واختصارها ذلك أن علم النحو بدأ التأليف فيه بالمطولات ، ومر بمراحل عديدة تنوعت فيها التآليف وتعددت أنماط التآليف وفقاً لمحاور التصنيف أحياناً ووفقاً للحجم وللاختصار فى أحايين أخرى وكانت المنظومات تمثل إحدى هذه المراحل من عمر التآليف فى النحو وكانت مظهراً من مظاهر تطور التأليف فيه وأشهر المنظومات النحوية هى الألفية التى نظمها ابن مالك وهنا يبدو تساؤل وهو هل تعد مسألة نظم القواعد نظرية جديدة ، أم أنها طريقة أداء لوصف القواعد لوصف اللغة . فالحقيقة أن المنظومة النحوية التى ألفها ابن مالك لم تكن وصفاً للقواعد وحسب وإنما هى تتسم بمنهج خاص من حيث إنها تتضمن صياغة القواعد ومعها أجزاء من الشواهد كما أنها لا تعمد إلى تلخيص قواعد النحو بطريقة مبسطة موجزة بل تأخذ بأفكار نحاة الكوفة ونحاة البصرة لتجمع

بين المنهجين ، ومن ثم فهى ليست طريقة أداء وحسب أو وسيلة تعليمية مميزة .

ومنهج المنظومة النحوية وليد اعتبارات متعددة منها طبيعة العلم المنظوم وهو علم النحو والعلماء الذين سبقوا الناظم والمرحلة التى نظمت فيها القواعد من عمر التأليف النحوى وتأثر المنظومة بمناهج سابقة فى التصنيف وتأثيرها فيما تلاها من أعمال نحوية .

فالنحو والصرف علمان شريفان جليلان لا يعينان على فهم اللغة وتراكيبها فحسب بل هما معينان على فهم كل علوم العربية وهما يحتاجان إلى طول فكر ودربة على العديد من الشواهد والنصوص العربية من مختلف مستويات اللغة ، ولذا فالنظم لا يوفى بحاجات المتعلم أو الدارس من الإيضاح والتفسير والشرح ولذا يعد الدارسون علم النحو من الصعوبة بحيث لا تستوعب قواعده فى كتب النحو الأصلية فحسبنا صعوبة النظم الذى يعتمد على علم العروض والقافية الذى يشكو الدارسون من صعوبته أيضاً .

فتحليل الشعر وهو فى صورته المنظومة يعد من المسائل الشاقة على دارسى اللغة ، ولذا إذا قدم علم النحو بقواعده الصعبة فى صورة منظومة فقد يكون هذا الأمر لائقاً بالدارسين فى عصور متقدمة ، أما فى هذا العصر الذى يمارس فيه تعليم النحو فإن هذه المنظومة النحوية تعد من أصعب الأمور وأن الدارس دائماً لا يعتمد على النظم فى تعليم قواعد النحو وإنما يعتمد على الشروح والحواشى أو الكتب التى تحاول أن تقدم أبواب النحو فى صورة

مبسطة ويتعلم الدارس هذه القواعد من خلال تحليل الشواهد لا من خلال النظم .

لذا فإن هذه المنظومات لا تلائم مستوى الدارس فى هذا العصر الذى نعيشه إلا أن كان مؤهلاً تأهيلاً خاصاً من حيث إتقانه لعلمى العروض والقافية لأن نطق النظم نطقاً غير سليم يؤدى إلى كسر البيت ومن ثم فهم القاعدة فهماً خاطئاً وغالباً ما يحشى البيت بجزء من الشاهد فيحفظه أيضاً حفظاً خاطئاً .

ولغة النظم مركزة مضغوطة موجزة أشد الإيجاز وليس هناك مجال لإهمال أى جزء فيه لأنه يعد أصلا من أصول العلم أو مثالا من أمثلته.

وقد جلبت على نفسها كثيرا من الحشو والتطويل والعودة إلى ما كان مبسوطا فى كتب النحو القديمة بما أجرى عليها من شروح وشروح الشروح والتعليقات والتقريرات .

فأصبحت عبئا على الدارس وضاع الهدف الذى أراده ابن مالك من اختصار النحو حتى أن الناظم نفسه قد شرحها وكذا ابنه وكثير من علماء النحو الأجلاء المتأخرين .

ومن خلال اطلاع الدارسين العرب على المنهج الوصفى وعلم اللغة الحديث بدا لهم أن النحو العربى قد شابته بعض الشوائب مثل تعدد الآراء وكثرة الخلافات حول المسألة الواحدة وجواز أكثر من وجه فى الموضع الواحد وتعدد الصيغ واضطرابها خاصة فى بعض مباحث الصرف مثل أبواب الفعل الثلاثى ومصادره وصيغ جموع التكسير وهذه الشوائب بطبيعة الحال تنطبق على الشروح

والحواشى وشروح الشروح التى كتبت على الألفية ومؤلفات أخرى عاصرت الألفية لكن المنظومة النحوية تخلصت من هذه الشوائب لا لأنها منهج جديد فى دراسة النحو ولكن لقصور طاقة النظم عن استيعاب هذا التطويل ومن هنا فقد يكون هذا الأمر مؤيدا لما أراه من أن هذه المنظومة النحوية كانت اعتراضا على طريقة النحو العربى فى التأليف المألوف مثلما كان كتاب (الرد على النحاة) ثورة على نحو المشرق وأصوله ، فالثورة على نحو المشرق كانت لها بيئة وظروف تختلف عن البيئة التى نظمت فيها قواعد النحو ، ولذا كانت تجربة ابن مالك وابن معط فى نظم القواعد اعتراضا على وسائل تلقين المنظومة النحوية عن الوفاء بمتطلبات القاعدة النحوية واستيفاء شروطها لقيود الوزن والقافية ومحدودية الضرورات ودورانها فى إطار المستعمل من لغات العرب .

ولم تكن المنظومة النحوية وسيلة ناجعة خصوصا فى علم النحو فالمنظومة لم تثبت كفاءتها بقدر ما أثبتت كفاءة الناظم وقدرته على الأداء وكان لابد للناظم الواحد من التدرج فى مصنفاته بحيث يؤلف مصنفا منظوما ثم يختصره ثم يبسط النظم فى لغة سهلة واضحة ثم يشرح المبسوط فيستوفى العناصر اللازمة لقبول مصنفه لدى تلامذته من حيث الإيضاح ووفرة الشواهد والأمثلة .

لقد أراد ابن مالك بعد أن نظم الكافية ، والخلاصة أن يؤلف كتابا مختصرا يستوفى أصول النحو ، ويستولى على أبوابه وفصوله ، فألف كتابه الموسوم "بتسهيل الفوائد وتكميل المقاصد" علاجا لما أصاب المنظومة من أوجه قصور ومحاولة لاستكمال أوجه النقص

. وهذه المنظومة النحوية لم تيسر النحو بل أحوجت الدارس والمتعلم إلى جهد أكبر فى استيعاب البيت المنظوم أولا وحل عقده ورموزه وإدراك الصعب من اللغة فيه أضف إلى ذلك استيعاب الشرح الذى كتب عليه وتحليل الشواهد وبذلك تكون المنظومة قد فقدت مزيتها فى الاختصار فعادت الشروح إلى ما دون فى كتب النحو القديمة وأضيف إليها التبسيط وفك ألغاز البيت المنظوم .

فهذه المنظومة حققت مطلبين متعارضين وهما الاختصار فى عرض القواعد والشواهد والأمثلة وكذا شمول المنظومة لأبواب النحو والصرف بالرغم من أن ابن مالك قدم هذه الوسيلة التعليمية الجديدة هو وابن معط على أنها ثورة فى التصنيف تختلف عما سبقها من مؤلفات النحو ومطولاته .

ومنهج نظم القواعد واختصارها على طريقتها فى الاختصار والشمول هو منهج ذو أبعاد تعليمية معيارية ذات اتجاه يعد مزيجا للاتجاهات النحوية التى ظهرت فى البيئات العلمية العربية ومحور منظومة ابن مالك هو المعمولات مما أتاح له مجالا للتشقيق والتفريع فى الأبواب النحوية وفقا لوظائف هذه المعمولات مما لم يترك مجالا لدراسة المركبات والأساليب إلا فى إطار عرض الوظائف النحوية للمعمولات فمنها المفرد وشبه الجملة والجملة عرضت فى إطار أبواب تتعلق بالخبر أو الحال أو النعت على سبيل المثال .

وهذه النظرة القائمة على محور المعمولات كانت نظرة تعليمية مناسبة للفكر لما فيه من ترابط بين المسائل فى الأبواب وذلك

يساعد المتعلم على الترتيب الذهنى وعلى التذكر أيضا . وظل نحو الألفية يبدأ بالجزئيات أملا فى الوصول إلى الكليات ، وظلت المركبات محصورة فى الجملة الاسمية والجملة الفعلية وشبه الجملة ، وظل تعليم النحو فى إطار تبويبه بعيدا عن الأساليب الإنشائية والأساليب الخبرية بأنواعها ، وظل نحو الألفية مقيدا ببيان الوظائف النحوية للمفردات وعلاماتها المعروفة بعلامات الإعراب .

وتلك النقود التى وجهت للنحو العربى لا تنطبق على مؤلفات النحاة الأوائل مثل الخليل وسيبويه وابن جنى والفراء والمبرد الخ . لكنها يمكن أن تنطبق على مؤلفات النحاة المتأخرين ثم جاءت بعد ذلك المنظومات والشروح والحواشى وهؤلاء جميعا هم المعنيون بنقد المحدثين من اللغويين ولذا فنقد النحو العربى فى العصر الحديث مسئول عنه من صنعوا المنظومات والحواشى والشروح فالمتابع للتراث النحوى العربى يجد وصفا للخليل بأنه عبقرى العربية ، وسيبويه نسيج وحده والفراء لولاه ما كانت العربية ، وابن جنى هو العالم الفذ الفرد ، والزمخشرى أول مصنف لكتاب نحوى شامل تتناسب الأبواب فيه على نحو لم يسبق إليه فإذا كانت هذه هى حال نحاة العربية ولغوييها الذين استمدت صفاتهم من مؤلفاتهم .

فما السبب إذن فى الحملات التى شنت ضد النحو العربى منذ ابن مضاء القرطبى ؟

إنه النظم والاختصار وفى هذا الإطار دارت أفكار هذا البحث .

٣ - حدود المادة وحجمها :

حجم هذه الدراسة هو منظومة ابن مالك فى قواعد نحو العربية وصرفها المشهورة بالألفية .

وقد غلب الطابع التعليمى أو الدراسى على منهج ابن مالك فى بناء كتابه وفى طريقة تقديمه لمسائل النحو وربط بعضها ببعض وقد نظم رؤوس المسائل فى أبواب وفروعها فى فصول .

وقد بلغت جملة الأبواب ثمانين والفصول مائتين وأحد عشر ، تناول مسائل النحو فى سبعة وستين باباً أعقبها بمسائل الصرف وبعض المباحث الصوتية فى ثلاثة عشر بابا .

نظم ابن مالك فى "ألفيته" كل مسائل النحو والصرف وقد جاءت فى ١٠٠٣ من الأبيات .

وتضم الألفية باستثناء المقدمة والخاتمة أبوابا وفصولا كثيرة بين القصير والطويل ، أولها باب الكلام وما يتألف منه وآخرها باب الإدغام . وأول ما يصادفنا من أبواب النحو فى هذه الألفية باب الكلام وما يتألف منه نظم فيه ابن مالك (٧) أبيات ، والمعرب والمبنى (٤٤) بيتا ، والنكرة والمعرفة (٢٠) بيتا والعلم (١٠) أبيات واسم الإشارة (٦) أبيات والموصول (١٨) بيتا والمعرف بأداة التعريف (٧) أبيات والإبتداء (٣٠) بيتا ، وكان وأخواتها (١٥) بيتا ، وفصل فى ما ولا ولات وإن المشبهات بليس (٦) أبيات ، وأفعال المقاربة (١٠) أبيات ، وإن وأخواتها (٢٣) بيتا ، ولا التى لنفى الجنس (٩) أبيات ، وظن وأخواتها (١٤) بيتا ،

وأعلم وأرى (٥) أبيات والفاعل (١٧) بيتا ، والنائب عن الفاعل (١٣) بيتا واشتغال العامل عن المعمول (١٢) بيتا وتعدى الفعل ولزومه (١١) بيتا والتنازع فى العمل (٨) أبيات ، والمفعول المطلق (١٢) بيتا والمفعول له (٥) أبيات والمفعول فيه وهو المسمى ظرفاً (٨) أبيات ، والمفعول معه (٥) أبيات والاستثناء (١٦) بيتا ، والحال (٢٤) بيتا والتمييز (٨) أبيات وحروف الجر (٢١) بيتا والإضافة (٣٩) بيتا ، والمضاف إلى ياء المتكلم (٤) أبيات وإعمال المصدر (٤) أبيات وإعمال اسم الفاعل (١٢) بيتا وأبنية المصادر (١٧) بيتا وأبنية أسماء الفاعلين والمفعولين والصفات المشبهة بها (١٠) أبيات والصفة المشبهة باسم الفاعل (٧) أبيات والتعجب (١١) بيتا ونعم وبئس وما جرى مجراهما (١١) بيتا وأفعل التفضيل (١٠) أبيات والنعت (١٤) بيتا والتوكيد (١٤) بيتا والعطف (٦) أبيات وعطف النسق (١٥) بيتا والبدل (٨) أبيات والنداء (١٢) بيتا وفصل فى تابع المنادى (٧) أبيات والمنادى المضاف إلى ياء المتكلم (٣) أبيات وأسماء لازمت النداء (٣) أبيات والاستغاثة (٣) أبيات والندبة (٧) ابيات والترخيم (١٢) بيتا والاختصاص نظم فيه بيتين والتحذير والإغراء (٥) أبيات وأسماء الأفعال والأصوات (٨) أبيات ونونا التوكيد (١٤) بيتا وما لا ينصرف (٢٧) بيتا وإعراب الفعل (١٩) بيتا وعوامل الجزم (١٤) بيتا .

وأول ما يصادفنا من مسائل الصرف فى هذه الألفية هو :

تعدى الفعل ولزومه نظم فيها ابن مالك (١١) بيتا ، ثم أبنية

المصادر (١٧) بيتا ، يليه أسماء الفاعلين والمفعولين (١٠ أبيات) ، والصفة المشبهة باسم الفاعل (٧ أبيات) وأفعل التفضيل (١٠ أبيات) ، والتأنيث (١٣ بيتا) ، والمقصور والممدود وكيفية تثنيتها وجمعهما تصحيحا (٢٠) بيتا ، وجمع التكسير (٤٢) بيتا ، والتصغير (٢٢) بيتا ، والنسب (٢٦) بيتا ، والوقف (١٩) بيتا ، والإمالة (١٥) بيتا والتصريف (٢٣) بيتا ، وزيادة همزة الوصل (٥) أبيات ، والإبدال والإعلال (٤٨) بيتا ، والإدغام (١٢) بيتا .

من هذا العرض يتبين أن عدد أبيات الألفية التى تناولت المسائل الصرفية هو (٣٠٠) بيت ، والباقى من الألفية وعدده (٧٠٣) من الأبيات هى فى علم النحو . وأبيات الصرف لم تكن وقفا على الأبنية والصيغ وحدها مما يختص به الصرف ، ولكنها تناولت أيضا تراكيبها وأحوال وقوعها فى الجملة وطريقة إعرابها ولذا فإن الـ (٣٠٠) بيت ليست كلها خالصة تماما للصرف .

وقد أخذ على الألفية عدم تركيزها على تصريف الأفعال وتخصيص باب لها يليق بأهميتها فى النحو ، وربما فعل ابن مالك ذلك اكتفاء بلاميته الشهيرة المسماة لامية الأفعال .

٣ـ الدراسات السابقة :

١ ـ فنون التقعيد وعلوم الألسنية د . ريمون طحان ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ١٩٨٣م .

٢ ـ نحو الألفية د . محمد عيد قسمان القسم الأول مكتبة الشباب ط القاهرة ١٩٩٠م ، والقسم الثانى ١٩٩٢م .

وظهرت دراسات علمية عديدة تتناول نظام النحو العربى بالدراسة أو النقد أو التوجيه أو الإصلاح وكانت غالبا ما تتحدث عن النحو العربى بصفة عامة وشاملة فإذا ما أخذت على النظام مآخذ فإنها لا تفرق بين مرحلة المطولات أو المختصرات أو المنظومات بل كانت تسمه جميعه بسمات يرجع أغلبها أو ينطبق على المنظومات والمختصرات والشروح والحواشى والتقارير .

* وأقرب الدراسات إلى موضوعنا هذا :

١ - المدرسة النحوية فى مصر والشام فى القرنين السابع والثامن من الهجرة ، د . عبد العال سالم مكرم ، دار الشرق القاهرة ، ط١ ، ١٩٨٠م .

٢ - النحو التعليمى فى التراث العربى ، د . محمد إبراهيم عبادة منشأة المعارف الإسكندرية ١٩٨٧م .

٣ - نظرية الاكتمال اللغوى عند العرب ، للدكتور أحمد طاهر حسنين ، ط١ ، القاهرة ١٩٨٧م .

* وهناك عديد من الدراسات مست الموضوع مسا خفيفا منها :

١ - تطوير الدرس النحوى ، د . حسن عون القاهرة ١٩٧٠م .

٢ - دراسات نقدية فى النحو العربى د . عبد الرحمن أيوب مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٥م .

٣ - فى إصلاح النحو العربى ، عبد الوارث مبروك ، ط١ ، دار القلم الكويت ، ١٩٨٥م .

٤ ـ اللغة العربية معناها ومبناها ، د . تمام حسان الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٩م .
٥ ـ النحو العربى والدرس الحديث بحث فى المنهج ، د . عبده الراجحى ، بيروت ١٩٧٧م .
٦ ـ نظرية النحو العربى فى ضوء مناهج النظر اللغوى الحديث ، د. نهاد الموسى ، ط٢ ، الأردن ١٩٨٧م .

٤ـ الهدف من الدراسة :

الهدف منها هو بيان أن اتجاه نظم القواعد واختصارها ليس نموذجا كنموذج البصرة أو الكوفة أى أنه ليس اتجاها نحويا له نظام مستقل أو فكر جديد على فكر نحاة العربية وإنما هو مرحلة من مراحل التأليف التى مر بها النحو العربى وليس تطورا عنه بل هو وسيلة تعليمية وطريقة كانت جديدة فى وقتها تختلف عن المطولات النحوية كتلك التى أنتجها سيبويه والمبرد وغيرهما كما تهدف الدراسة إلى بيان أن عمر الاتجاه إلى اختصار قواعد العربية كان قديما منذ خلف الأحمر إلى عهد تأليف المنظومات .

وهذه الوسيلة قاصرة عن أداء الهدف الذى استعملت من أجله فزادت النحو تعقيدا وحملت الدارس أعباء فك عقد النظم فى كل قاعدة وبيان أوجه القصور عن القاعدة غير المنظومة ثم استكمال أوجه النقص بالبحث عن المثال والشاهد كما جشمت الدارس عناء دراسة كثير من الضرورات الشعرية التى يسمح بها النظام فى الكلام المنظوم دون المنثور .

كما تهدف الدراسة إلى بيان أن ما وجه إلى نظام النحو العربى من نقد فى العصر الحديث وما صدر من محاولات كثيرة متعددة لإصلاحه وتقويمه واقتراح نماذج جيدة إنما كان مبعثه هو تلك المنظومات والاختصارات التى لا تمثل نظام النحو بأكمله وإنما هى مرحلة من مراحله أو محاولة من محاولات النظر فيه وتجديده والخروج به عن رتابته والمقصود رتابة طرق التدريس أو التعليم وتقترح هذه الدراسة عدم الاعتماد على طريقة المختصرات والنظم بما هو شائع فى عالمنا العربى والإسلامى ومعاهدنا العلمية والرجوع إلى النصوص والنماذج التركيبية والدلالية كتلك التى ألفها سيبويه مع تطوير اللغة التى تكتب بها وتبسيطها إلى حد يتلائم مع مستوى الدارسين من ناحية ومستوى العصر الذى نعيشه من ناحية أخرى أضف ذلك إلى تطوير طريقة التدريس والتلقين وتطوير الملقن أيضا .

٥.المنهج :

منهج هذا البحث وصفى يعتمد على التحليل النصى للغة القواعد المنظومة لأنه لا يختص بنص بعينه من نصوص العربية أو يتناول أحد مستوياتها اللغوية بالتحليل وإنما هو رصد لنظام القواعد فى مرحلة من مراحل عمر التأليف النحوى .

ومسألة التقييم والتقويم لا تعد من منهج المعيارية وإنما فرضتها طبيعة الدراسة التى تمثل مرحلة وسطى سبقتها مراحل متقدمة بدءا من سيبويه وتلتها مراحل أخرى على يد ابن هشام

والسيوطى ومن صنعوا الحواشى والتقارير كمـا أن مـن ألفـوا فـى النظم والاختصار كانت لهم أعمال أخرى مطولة ومنثورة مما يـدل على إدراكهم لأوجه القصور فـى هذا الاتجـاه مـن التـأليف ، لكنـه كان ضرورة تعليمية فى بيئة معينة وزمن محدد .

- النظم وخصائصه :

نظم ابن مالك فى "ألفيته" كل مسائل النحو والصرف وقد جاءت فى ١٠٠٢ فى الأبيات ، وشرحها كثيرون من أئمة علماء النحو منهم : المؤلف نفسه ، وابنه بدر الدين محمد ، والأبناسى الهاشمى، وابن عقيل ، والإدكاوى ، والمراوى (المعروف بابن أم القاسم ، والأشمونى ، والمختار بن بون ، وابن العينى ، والمكودىّ ، والرعينى الأندلسى ، والهوارى الأندلسى وغيرهم .

وتضم الألفية باستثناء المقدمة والخاتمة أبواباً وفصولاً كثيرة بين القصير والطويل ، تبلغ عدة هذه الفصول ثمانين ، أولها باب الكلام وما يتألف منه وآخرها باب الإدغام . كمُا تمتاز الألفية بأن ابن مالك عدل فيها عن آرائه السابقة وأثبت ما يرى صحته ، فيمكن القول إنها رأيه النهائى فى المسائل النحوية وأول ما يصادفنا من مسائل الصرف فى هذه الألفية هو : تعدى الفعل ولزومه نظم فيها ابن مالك (١١ بيتاً) ، ثم أبنية المصادر (١٧ بيتاً) ، ويتلو ذلك: أبنية أسماء الفاعلين والمفعولين (١٠ أبيات) ، والصفة المشبهة باسم الفاعل (٧ أبيات) وأفعل التفضيل (١٠ أبيات) ، والتأنيث (١٣ بيتاً) ، والمقصور والممدود وكيفية تثنيتهما وجمعهما تصحيحاً (٢٠ بيتاً) ، وجمع التكسير (٤٢ بيتاً) ، والتصغير (٢٢ بيتاً) ، والنسب (٢٦ بيتاً) ، الوقف (١٩ بيتاً) ، والإمالة (١٥ بيتاً) والتصريف (٢٣ بيتاً) ، وزيادة همزة الوصل (٥ أبيات) ، والإبدال والإعلال (٤٨ بيتاً) ، والإدغام (١٢ بيتاً) .

من هذا العرض نستطيع أن نؤكد أن عدد أبيات الألفية التى تناولت المسائل الصرفية هو ٣٠٠ بيت ، والباقى من الألفية وعدده ٧٠٢ من الأبيات فهى فى علم النحو . ولكن ينبغى أن يُعلم أن أبيات الصرف لم تكن وقفاً على الأبنية والصيغ وحدها مما يختص به الصرف ، ولكنها تناولت أيضاً تراكيبها وأحوال وقوعها فى الجملة وطريقة إعرابها ولذا فإن الـ ٣٠٠ بيت ليست كلها خالصة تماماً للصرف .

وقد يأخذ البعض على الألفية عدم تركيزها على تصريف الأفعال وتخصيص باب لها يليق بأهميتها فى النحو ، والرد على ذلك بأن ابن مالك ربما فعل ذلك اكتفاء بلاميته الشهيرة المسماة لامية الأفعال . ولم يكن ابن مالك هو أول من نظم مسائل الصرف فقد نظمه ابن دريد (ت ٣٢١ هـ) فى المقصور والممدود . ويبدو أن المقصور والممدود قد حظى بعناية الباحثين لدرجة أن ابن دريد كتب فيهما قصيدة فى أكثر من ستين بيتاً طبعت مرتين : إحداهما فى مجلة المشرق بيروت ١٩٢١ م صفحات ٦٤ ـ ٦٨ ، والطبعة الثانية فى مجلة المجمع العلمى بدمشق سنة ١٩٢٨ م صفحات ٤٣٣ ـ ٤٣٧ مشروحة . إن قسطاً كبيراً من مؤلفات ابن مالك النحوية كان معالجاً بالنظم ، ويبدو أنه كان بارعاً فى النظم وإلا لما استطاع أن ينظم هذه العلوم على ما بها من صعوبة وأن تنقاد له قواعد النحو وشواهده على هذا النحو فى الألفية وأرى أن هذا يعدّ سبباً مهماً من أسباب اتجاهه إلى نظم النحو بهدف التيسير على المتعلمين إلى جانب اتجاهه التجديدى فى الوسائل التعليمية . أضف ذلك إلى

شيوع الشعر التعليمى فى شكل منظومات منذ القرن الثانى الهجرى فلعل هذه الأسباب جميعاً اتحدت معاً وأسهمت فى نظم علم النحو والصرف . وقد أوضح الكتاب جميع المباحث النحوية مما يتصل بالمرفوعات والمنصوبات والمجرورات ، وبالمشتقات ، وبالفعل وإعرابه وبالتصغير والنسب والوقف والإمالة ، وبالإعلال والإبدال والإدغام .

وقد أتمت شروح هذا الكتاب وحواشيه ما يحتاج إليه من استيفاء الشروط وما يتطلب من شواهد فشرح الأشمونى يمتاز بأنه يسوق فى ثنايا الموضوعات طائفة من التنبيهات التى تتضمن كثيراً من الفوائد والشوارد وهذه تشتمل على مسائل لها شأن فى إتمام الشرح واستيعاب أطراف المسائل .

ولأن المنظومات النحوية طريقة جديدة فى عرض النحو فقد اختُصرت قواعده وشواهده وأمثلته وعممت ضروراته الشعرية واللهجات المختلفة فى الاستعمال ومَزَجت بين آراء نحاته من الكوفيين والبصريين ولأنها نَقَلت النحو العربى بأصوله وأسسه كما هي ؛ لذا فكانت هذه المنظومات وسيلة وطريقة لا منهج ولأن ألفية ابن مالك هى أكثرها شيوعاً وتداولاً بين الدارسين قديماً وحديثاً فى المعاهد العلمية والجامعات . ولكن هذه التجربة فى نَظْم علم النحو بما تأثرت به من تجربة ابن حزم وابن مضاء القرطبى تعدُّ محاولة هادئة من محاولات الاعتراض على المؤلفات النحوية العربية المألوفة والموروثة عن نحاة العربية على مر عصور التأليف النحوى وإن سبقتها ألفية ابن معطٍ .

وهذه الألفية تتحمل ما وجه إلى النحو العربى من نقد فى العصر الحديث ومن عدم مسايرته لأساليب البحث اللغوى المعاصر وإن كانت هذه الألفية قد تخلصت من الحشو وتعدد الآراء وعرض أصول النحو تفصيلاً وتحليل الأمثلة والشواهد . لكنها جلبت على نفسها كثيراً من الحشو والتطويل والعودة إلى ما كان مبسوطاً فى كتب النحو القديمة بما أجرى عليها من شروح وشروح الشروح والتعليقات والتقريرات . فأصبحت عبءً على الدارس وضاع الهدف الذى أراده ابن مالك من اختصار النحو حتى أن الناظم نفسه قد شرحها وكذا ابنه وكثير من علماء النحو الأجلاء المتأخرين وتجربة د / تمام حسان فى كتابه اللغة العربية معناها ومبناها[١] تعدّ وسيلة لدراسة النص العربى من كافة جوانبه وكانت تجربة الدكتور تمام تقصد معالجة أوجه القصور فى النحو العربى وهذه الجوانب التى أراد بها الدكتور تمام تطوير نحو العربية إنما تصلح أن توجه إلى هذه المنظومات وشروحها لا إلى النحو العربى فى كتب المتقدمين .

فالنحو والصرف علمان شريفان جليلان لا يعينان على فهم اللغة وتراكيبها فحسب بل هما معينان على فهم كل علوم العربية وهما يحتاجان إلى طول فكر ودربة على العديد من الشواهد والنصوص العربية من مختلف مستويات اللغة ولذا فالنظم لا يوفى بحاجات المتعلم أو الدارس من الإيضاح والتفسير والشرح ولذا يعدّ

---

[١] د/ تمام حسان "اللغة العربية معناها ومبناها" الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩م .

الدارسون علم النحو من الصعوبة بحيث لا تستوعب قواعده في كتب النحو الأصيلة فحسبنا صعوبة النظم الذى يعتمد على علم العروض والقافية الذى يشكو الدارسون من صعوبته أيضاً .

فتحليل الشعر وهو فى صورته المنظومة يعدّ من المسائل الصعبة على دارسى اللغة ، ولذا إذا قدم علم النحو بقواعده الصعبة فى صورة منظومة فقد يكون هذا الأمر لائقاً بالدارسين فى عصور متقدمة أما فى هذا العصر الذى يمارس فيه تعليم النحو . فإن هذه المنظومة النحوية تعدّ من أصعب الأمور وأن الدارس دائماً لا يعتمد على النظم فى تعلم قواعد النحو وإنما يعتمد على الشروح والحواشى أو الكتب التى تحاول أن تقدم أبواب النحو فى صورة مبسطة ويتعلم الدارس هذه القواعد من خلال تحليل الشواهد لا من خلال النظم .

لذا فإن هذه المنظومات لا تلائم مستوى الدارس فى هذا العصر الذى نعيشه إلا إن كان مؤهلاً تأهيلاً خاصاً من حيث إتفاقه لعلمى العروض والقافية لأن نطق النظم نطق غير سليم يؤدى إلى كسر البيت ومن ثمّ فهم القاعدة فهماً خاطئاً وغالباً ما يحشى البيت بجزء من الشاهد فيحفظه أيضاً حفظاً خاطئاً .

بسط المنظوم :

وقد أوسع العلماء الألفية شرحاً وتعليقاً وبلغ من كثرتهم أن الدارس الحديث يعجز عن الإحاطة بها ففى كشف الظنون ذكر أكثر من أربعين شرحاً لها بدءً من ابن الناظم بدر الدين بن مالك (ت

٦٨٦ هـ) ومروراً بابن عقيل والأشمونى حتى بدر الدين محمد بن محمد بن الرضى الغزى المتوفى سنة ١٠٠٠ هـ .

وعند بروكلمان فى كتابه تاريخ الأدب العربى نجد أكثر من خمسين شرحاً منهم مما يقرب من ثلاثة وأربعين شرحاً بالعربية والباقى بالفارسية وقد اتفق مع صاحب الكشف مجموعة من الشراح واختلف معه الكثيرون مما يعنى أن عدد شراح الألفية أكثر من العدد الذى حدده كل منهم .

فلم يوضع على متن من المتون نثراً كانٍ أو نظماً مثل ما وضع على ألفية ابن مالك من الشروح المتنوعة ، وأهم الشروح :

١ ـ شرح الدرة المضيئة لابن المصنف بدر الدين المتوفى سنة ٦٨٦ هـ .

٢ ـ شرح البعلى وهو أحد تلاميذ ابن مالك توفى سنة ٧٠٩ هـ .

٣ ـ شرح الإسنوى المتوفى سنة ٧٢١ هـ .

٤ ـ شرح الغزارى المتوفى سنة ٧١٩ هـ .

٥ ـ منهج السالك فى الكلام على ألفية ابن مالك لأبى حيان الأندلسى المتوفى سنة ٧٤٥ هـ .

٦ ـ شرح ابن عقيل ٦٩٧ ـ ٧٦٩ هـ .

٧ ـ محمد الخضرى الدمياطى له حاشية على شرح ابن عقيل .

٨ ـ لعبد المنعم الجرجاوى شرح على شواهد ابن عقيل .

٩ ـ للسجاعى المتوفى ١١٩٧ هـ شرح لشواهد ابن عقيل سماه 'فتح الجليل' فى شرح شواهد ابن عقيل .

١٠ ـ لعبد الرحمن بن على بن صالح المكودى شرح على الألفية .

١١ ـ ولأحمد الملوى حاشية على شرح المكودى .

١٢ ـ ولابن هشام الأنصارى شرح للألفية 'أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك' ويعرف بالتوضيح .

١٣ ـ ولخالد بن عبد الله الأزهرى الجرجاوى شرح على أوضح المسالك وله كذلك إعراب الألفية سماه 'تمرين الطلاب فى صناعة الإعراب' ، وله شرح على 'تمرين الطلاب' سماه 'موصل الطلاب' .

١٤ ـ ولبدر الدين محمود العينى كتاب 'المقاصد النحوية فى شرح شواهد شروح الألفية' .

١٥ ـ ولعلى بن محمد الأشمونى الشافعى شرح يعرف بمنهج السالك.

١٦ ـ وللصبان حاشية على شرح الأشمونى .

أما المتقدمون فلهم حواشٍ وتعليقات على الشروح المشهورة مثل إرشاد السالك لعبد المجيد الشرنوبى الأزهرى وبغية السالك إلى أوضح المسالك لعبد المتعال الصعيدى إلخ ..

ونلاحظ أن شرح بدر الدين بن المصنف المتوفى سنة ٦٨٦ هـ، كان شرحه شرحاً منقحاً اشتهر بشرح ابن المصنف قال الصفدى عنه لم تشرح الخلاصة بأحسن ولا أسدّ ، ولا أجزل منه على كثرة شروحها " خطّأ والده فى بعض المواضع ، وأورد الشواهد من الآيات القرآنية وفرغ من تأليفه فى محرم سنة ٦٧٦ هـ(٢) .

---

(٢) حاجى خليفة ، كشف الظنون ، ج١ ، ص١٥١ وما بعدها ط استانبول ١٩٤٣ ـ ١٩٦٢ م.

وشرح أثير الدين أبو حيان المتوفى سنة ٧٤٥ هـ ، وسمى شرحه "منهج السالك فى الكلام على ألفية ابن مالك" ولم يكمله ، وذكر أبو حيان أن غرضه فى مقاصد ثلاثة : تبيين ما أطلقه ، وتنبيه على الخلاف الواقع فى الأحكام ، وحلّ ما أشكل : الشيخ شمس الدين حسن بن القاسم المعروف (بابن أم القاسم) النحوى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ ، وشرحه من الشروح المشهورة .

أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الشهير (بابن عقيل النحوى) والمتوفى سنة ٧٦٩ هـ . وما زال شرحه على الألفية يدرس حتى الآن .

شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن الصائغ . هذا ولم يكتف العلماء بوضع الشروح الكثيرة المتعددة للألفية ، بل وجهوا همتهم أيضاً إلى إعرابها لتكون مجال تمرين للطلاب على الإعراب ، ومن الذين أعربوها الشيخ شهاب الدين أحمد بن الحسن الرملى الشافعى ، والمتوفى سنة ٨٤٤ هـ ، والشيخ خالد بن عبد الله الأزهرى ، والمتوفى سنة ٩٠٥ هـ . وقد سمى إعرابه 'تمرين الطلاب فى صناعة الإعراب' .

وكما اهتم العلماء بها إعراباً وشرحاً اهتم بعض العلماء بشواهد شروحها كما فعل الشيخ أبو محمد محمود ابن أحمد العينى ، والمتوفى سنة ٨٥٥ هـ ، فله شرحان على شواهد شروح الألفية : شرح كبير ، وشرح صغير ، وسمى شرحه الكبير : 'المقاصد النحوية فى شرح شواهد شروح الألفيّة' ، وقد اشتُهر "بالشواهد الكبرى" جمعها من شروح التوضيح ، وشرح ابن المصنف وابن أم

قاسم ، وابن هشام ، وابن عقيل ورمز لها بالظاء والقاف والهاء والعين وعدد الأبيات المستشهد بها ألف ومائتان وأربعة وتسعون ، وفرغ من الشرح فى شوال سنة ٨٠٦ هـ .

وقد أسهم الشيخ نور الدين إبراهيم بن هبة الله الإسنوى ، والمتوفى سنة ٧٢١ هـ فى نثر الألفية ، وكذلك قام بهذا المجهود برهان الدين إبراهيم بن موسى الكركى المتوفى سنة ٨٥٣ هـ .

وقد بدأ بروكلمان الحديث عن الشراح بابن الناظم أيضاً لكن الحديث امتد عنده من ابن الناظم فى القرن السابع الهجرى إلى القرن الثالث عشر فقد ذكر مجموعة من الشراح فيه ، منهم شرح على شرح المختار بن بون (ت بعد سنة ١٣٠٠ هـ) ، والأزهار الزينية لأحمد بن زينى دحلان (ت ١٣٠٤ هـ) وغيرهم .

ومنذ سيبويه (ت ١٨٠ هـ) بدأ عهد تصنيف المطولات النحوية فكتابه يعدّ أقدم المطولات التى ورثها النحويون حتى اليوم . وتتابعت شروح الكتاب ، ثم كان كتاب المازنى فى التصريف ، ثم كتاب المقتضب للمبرد .

وهذه المطولات إما أنها ولدت عملاقة كأصحابها الأفذاذ ككتاب سيبويه والتصريف للمازنى ، والمقتضب للمبرد ، وارتشاف الضرب لأبى حيان ، وإما أن تكون شروحاً لمصنفات دونها من النظم أو النثر ، كشرح التسهيل لابن مالك ، وشرح الكافية الشافية له أيضاً ، وشرح المفصل لابن يعيش ، وشرح الرضى على كافية ابن الحاجب ، وهمع الهوامع على جمع الجوامع للسيوطى .

وقد ازدادت المطولات طولاً بأن يتبع الشرح بحاشية ثم الحاشية بتقريرات فالأشمونى يشرح ألفية ابن مالك شرحاً مطولاً ، ثم يأتى الصبان ليضع حاشية على التوضيح ثم يأتى الشيخ خالد الأزهرى شارحاً التوضيح باسم التصريح ، ثم يأتى الشيخ يس العليمى بحاشية على شرح الصبان .

وتتسم هذه المطولات بذكر تفصيلات دقيقة فى التعريفات والتقسيمات والاعتراض على بعض العبارات أو الألفاظ ، ونجد ذلك واضحاً فى (شرح التسهيل) لابن مالك فى بيان أقسام الكلام ومعنى اللفظ والكلمة ، وفى (شرح الرضى على الكافية) فى معنى الكلمة وما المراد بالمفرد ؟ وما المراد بالوضع ؟

وهل الوضع للمفردات أو المركبات ، كما تكثر المطولات من عرض الخلافات بين النحويين وذكر احتجاجاتهم وآراء من نقل أو أخذ عنهم ، ونجد ذلك واضحاً فى همع الهوامع للسيوطى ، وارتشاف الضرب لأبى حيان ، وشرح الأشمونى ، وحاشية الصبان ، كما تعرض للروايات المتعددة للشاهد إن تعددت الروايات أو ذكر قائليها .

وقد ساعد على هذه الإطالة رغبة بعض المصنفين أو الشراح أو أصحاب الحواشى فى أن يبزوا غيرهم فيما صنفوا فهم يحشدون كل ما أُوْدِعَتْهُ حافظتُهم فجاءت شروحهم متشابهة فى ألفاظها[٣] ، وهكذا تحولت المختصرات إلى مطولات ففقدت وظيفتها . فلقد

---

[٣] د / محمد إبراهيم عبادة ، النحو التعليمى فى التراث العربى ص١٤٦ ، منشأة المعارف الإسكندرية ١٩٨٧م

تبارى ابن معطٍ وابن مالك فى وضع أوجز ما يمكن من الوسائل التعليمية فى النحو فكانت هذه الألفية ، ولكن هذه الشروح المتعددة والحواشي والتقارير عادت بها إلى العهد الذى سبق الألفية فى التأليف النحوى فأصبحت الألفية لا تدل إلا على براعة ناظمها .

إن الدارسين لألفية ابن مالك لم يكونوا مجرد شارحين أو معلقين على النظم فحسب بل كثيراً ما اضطرتهم طريقته فى نظم القواعد إلى نقده ومقارنة نظمه بكتبه الأخرى التى بسط فيها القواعد على طريقة القدماء وكثيراً ما أوجدوا تناقضاً وقصوراً فى المنظومة النحوية ومن هؤلاء الأشمونى الذى نقد كثيراً - فى شرحه - نظام الألفية وطريقة ابن مالك فى نظمها ولم يقف الأمر به عند هذا الحد ، بل كثيراً ما اقترح إصلاحاً لهذا النظم يقول فى أحد تنبيهاته : "وأمانون الإناث فقال فى شرح التسهيل : إن المتصل بها يبنى بلا خلاف وليس كما قال فقد ذهب قوم منهم ابن درستويه وابن طلحة والسهيلى إلى أنه معرب بإعراب مقدر منع من ظهوره ما عرض فيه من شبه الماضى"[٤] ويقول بعد شرح قول ابن مالك:

(٥١٥) ونعت معمولى وَحِيدَى معنى وعمل أتبع بغير استثنا

وقوله : "أتبع يوهم وجوب الإتباع ، وليس كذلك لأن القطع فى ذلك منصوص على جوازه[٥] .

ويقول بعد شرح قول ابن مالك[٦] .

---

[٤] شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك ، ج١ ، ص٦٢ ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة (د . ت) .

[٥] شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك ، ج٣ ، ص٦٨ .

١٠١ ـ إن يستطل وصل وإن لم يستطل

فالحذف نزر وأبوا أن يختزل

١٠٢ ـ إن صلح الباقى لوصل مكمل

والحذف عندهم كثير منجلى

١٠٣ ـ فى عائد متصل إن انتصب

بفعل أو وصف كمن نرجو يَهَبْ

(تنبيهات) فى عبارته أمور :

الأول : ظاهرها أن المنصوب بالوصف كثير كالمنصوب بالفعل وليس كذلك ولعله إنما لم ينبه عليه للعلم بأصالة الفعل فى ذلك وفرعية الوصف فيه مع إرشاده إلى ذلك بتقديم الفعل وتأثير الوصف .

الثانى : ظاهرها أيضاً التسوية بين الموصول الذى هو غير صلة (ال) والذى هو صلتها . ومذهب الجمهور أن منصوب صلة ال لا يجوز حذفه وعبارة التسهيل :

"شرط جواز حذف هذا العائد أن يكون متعيناً للربط" ؟

قال ابن عصفور : "فإن لم يكن متعيناً لم يجز حذفه ؟

نحو جاء الذى ضربته فى داره ."

الثالث : إنما لم يقيد الفعل بكونه تاماً اكتفاء بالتمثيل كما هى عادته .

---

(٦) شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك ، ج١ ، ص١٧٠ .

الرابع : إذا حُذف العائد المنصوب بشرطه ، ففي توكيده والعطف عليه خلاف ، أجازه الأخفش والكسائى ومنعه ابن السراج وأكثر المغاربة . ومن خلال اطلاع الدارسين العرب على المنهج الوصفى وعلم اللغة الحديث بدا لهم أن النحو العربى قد شابته بعض الشوائب مثل تعدد الآراء ، وكثرة الخلافات حول المسألة الواحدة ، وجواز أكثر من وجه فى الموضع الواحد وتعدد الصيغ واضطرابها خاصة فى بعض مباحث الصرف مثل أبواب الفعل الثلاثى ومصادره وصيغ جموع التكسير وهذه الشوائب بطبيعة الحال تنطبق على الشروح والحواشى وشروح الشروح التى كتبت على الألفية ومؤلفات أخرى عاصرت الألفية لكن المنظومة النحوية تخلصت من هذه الشوائب لا لأنها منهج جديد فى دراسة النحو ولكن لقصور طاقة النظم عن استيعاب هذا التطويل ومن هنا فقد يكون هذا الأمر مؤيداً لما أراه من أن هذه المنظومة النحوية كانت اعتراضاً على طريقة النحو العربى فى التأليف المألوف مثلما كان كتاب (الرد على النحاة) ثورة على نحو المشرق وأصوله ، فالثورة على نحو المشرق كانت لها بيئة وظروف تختلف عن البيئة التى نُظِمَتْ فيها قواعد النحو ، فابن مضاء اتّبع ابن حزم فى توجيه سهام النقد إلى النحو العربى وأصوله لتكون منطلقاً للثورة على فقه المشرق فى إطار عيشهما فى ظل دولة الموحدين ، لكن ابن مالك وابن معطٍ نظما ألفيتهما فى بلاد المشرق (مصر والشام) فلم يكن من الممكن مهاجمة المشارقة فى عقر دارهم بالإضافة إلى أن ابن مالك وابن معطٍ اتخذا من مصر والشام ملاذاً ومأمناً من الفتن

والثورات التى قامت فى بلاد الأندلس ، ولذا كانت تجربتهما فى نظم القواعد اعتراضاً على وسائل تلقين النحو وتدريسه لاعلى النحو وأصوله ومع ذلك قصرت المنظومة النحوية عن الوفاء بمتطلبات القاعدة النحوية واستيفاء شروطها لقيود الوزن والقافية . محدودية الضرورات ودورانها فى إطار المستعمل من لغات العرب.

والدليل على ذلك معانى حروف الجر المتعددة التى تتسع باتساع الاستعمال العربى :

فمعانى حروف الجر دراسة أسلوبية فى المقام الأول ، فالمعنى الذى يؤديه الحرف يعرف من نظم الكلام ومن ارتباطه بالكلمات قبله وبعده ، وبعبارة قصيرة من السياق الأسلوبى الذى جاء فيه .

ويترتب على ذلك بداهةٍ أن المعانى التى ساقها النحاة لحروف الجرّ لا تعد شاملة ، فمن المؤكد أن استقراء الكلام العربى - شعره ونثره - يوقف على معانٍ أخرى غير ما ذكره النحاة والذى اختصره ابن مالك اختصاراً شديداً يكاد ينحصر فى حصر حروف الجر نفسها :

٣٦٤ - هاك حروف الجر وهى من إلى حتى خلاحا شاعدا فى عن على

٣٦٥ - مذ منذ رُبَّ كى واو وتا والكاف والبا ولعل ومتى

فذكر هذه المعانى - وبخاصة المعنى الأصلى لكل حرف - له فائدة نحوية اساسية فى التفريق بين حرف الجر الأصلى والزائد والشبيه بالزائد .

إن عرض ابن مالك لمعانى هذه الحروف نظماً بدت فيه جوانب القصور التالية :

(أ) لم يف هذا العرض الوفاء المقنع بما لكل حرف من معانٍ استُعملَ لها استعمالاً مشهوراً فى الأساليب العربية الفصحى ، بل ذكر الناظم ما عنَّ له من هذه المعان واتعاد لطاقة النظم فالحرف (فى) مثلاً ذكر له معنيين هما (الظرفية والسببية) بينما وردت له معانٍ عديدة فى كُتب النحو الأخرى .

(ب) بعثرة معانىَ بعض هذه الحروف ، إذ جاءت معانى الحرف الواحد أحياناً فى أكثر من مكان . فالحرف (مِنْ) تفرقت معانيه فى أكثر من موضع ، وأيضاً حرف (الباء) .

(جـ) كل ما أفاده نظم ابن مالك أن حفظ الأبيات قد يُعين على الإحاطة بمعانى الحرف ـ فيما ذكره له من معانٍ خصوصاً أنها معانٍ كثيرة يُسهّل النظمُ حصرها أكثر من النثر .

(د) لكن لمعرفة هذه المعانى بصورة أشمل وأكثر تنظيماً يستحسن الرجوع لبعض كتب النحو الأخرى ، وأحسنها "أوضح المسالك" لابن هشام(٧) . ومن عرض الناظم لما يقوم بعمل الفعل ، وضح فى عرض الناظم (ابن مالك) ما يلى :

١ ـ بدأ أولاً بذكر إعمال المصدر واسم المصدر .

٢ ـ ثنّى بذكر إعمال اسم الفاعل والمبالغة ـ باعتبارها فى رأيه محولّة عنه ـ وإعمال اسم المفعول ، وعرض فى أثناء ذلك لأبنية المبالغة .

---

(٧) د . محمد عيد "نحو الألفية" القسم الثانى ، ص٤٨٨ ، مكتبة الشباب ط١٩٩٢ القاهرة .

٣ ـ عاد إلى ذكر أبنية المصادر من الثلاثى ومن غيره ، والمرة والهيئة ـ ولم يتعرض لأبنية "المصدر الميمى" وإن كان قد أشار إليه فى إعمال اسم المصدر ، إذ عدَّه ـ فيما ذكره ابن هشام ـ من هذا الأخير .

٤ ـ عاد مرة أخرى إلى ذكر أبنية أسماء الفاعلين والصفة المشبهة ـ باعتبارها فى رأيه من أسماء الفاعلين ـ وأبنية أسماء المفعولين .

٥ ـ ثم تحدث عن إعمال الصفة المشبهة بعد ذكر أبنيتها مع أسماء الفاعلين .

٦ ـ وبعد أن فصل الحديث فى "التعجب ونعم وبئس" عاد مرة أخرى فتحدث عن "أفعل التفضيل" من حيث الإعمال والصياغة .

٧ ـ ولم يتعرض فى أبنية المشتقات الزمان والمكان و"ابنية الآلة" ويبدو أنه تركهما ، لأنه ليس لهما عمل فى الجملة .

هذا نهج الناظم فى عرضه ، وهو نهج مُخْتَلِطُ فلا هو التزام الإعمال دائماً ولا هو والى بين الأبنية دائماً ولا هو والى بين الإعمال والأبنية فى كل باب على حدة(٨) .

ومن أشهر الشروح "شرح ابن عقيل" و "شرح الأشمونى" و"أوضح المسالك" لابن هشام ، وطابع الشرحين الأولين تحليل نص الأبيات ، وطابع الأخير عرض نحوها دون ذكر الأبيات وحاولت هذه الشروح استكمال جوانب النقص فى النظم .

وكانت بعض شروح الألفية قد مزقت الأفكار النحوية ارتباطاً بنصوص الأبيات وبجزئيات هذه النصوص (كذا ـ أى : كذا) وكثيراً ما يكون فيها الاستطراد والجدل ، مما يترتب عليه ضياع

---

(٨) د . محمد عيد : نحو الألفية ، القسم الثانى ، ص٥٩٥ .

الموضوع الأصلى وكَدَرُ تحصيله ، ويظهر هذا واضحاً فى الحواشى المكتوبة على تلك الشروح ، مثل "شرح الصبان" على "الأشمونى" و "شرح الحضرى" على "ابن عقيل" .

وقد كان "ابن هشام" فى " أوضح المسالك" مركزاً تركيزاً شديداً مما يحتاج معه الفهم إلى توضيحٍ آخر وتفسير .

فبعض موضوعاتِ النحو ومصطلحاته كانت فى حاجة إلى فهم واضح مقنع من خلال المراجع القديمة نفسها ، ومن أمثلة ذلك "اجتماع الاسم والكنية واللقب" و "الإشارة للقريب أو البعيد" و "الظرف التام أو الناقص فى بابى الموصول والخبر" و "أعلام الغلبة" و "المصدر النائب عن فعله فى حذف المبتدأ" و "المصدر الذى لا يصلح خبراً فى حذف الخبر" و "تحديد المقصود من التمام والنقصان فى "كان" و "العطف على خبر 'ما" الحجازية" و "المقصود من اسم المصدر" و "جريان المشتقات مجرى الصفة المشبهة" و "نيابة المصدر والمجرور عن الفاعل" - وغير ذلك مما يوجد منبثاً خلال هذا الكتاب .

أثارت بعض النصوص النحوية جدلاً بين النحاة ، كما أثار مثل هذا الجدل بعض مسائل النحو مثل "ال : الموصولة وإفادة الاسمية" و "مصطلح : جمع المؤنث السالم" و "الأمثلة الخمسة" و "حذف جملة كان كلها" وأبيات كثيرة من الشواهد"[٩] .

---

(٩) د . محمد عيد "نحو الألفية" ص أ ـ د القسم الأول ، مكتبة الشباب ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٩٠م .

وبخصوص الشرح والتفسير والحواشى والهوامش والتوضيحات والتعليقات والذيول والتقارير والرسائل وكلها من كتب التراث ، وقد طبع كثير منها ، علق عليها الدكتور ريمون طحان : بأنها مصنفات تقليدية تجمع الشروح من فضلات الأقدميين وتتألف من أشياء مبتذلة ينقلها أستاذ إلى تلاميذه ، فى حلقات شبه علمية .

وأنها دراسات تقليدية انتقلت بالتواتر إماماً عن إمام وشيخاً عن شيخ ، وكأن كل من شاء من الخلف أن يبدع ، فما عليه إلا أن يتوارث العلم كابراً عن كابر ، وأن يضيف بعض الشروح على الألفية ، وأن يتبع "نهج السالك" و "أوضح المسالك" للوصول إلى التكرار والترداد والاستطراد ، لا إلى الغاية والهدف . وأنها كشاكيل تتجمع فيها أمور من قبيل قال وما قال وعقب وذيّل وبسط وأضاف ، هى كشاكيل تكتظ بالنوادر والحكايات الطريفة وتمتلئ بالشروح التى ترتجل فى حلقات التعليم الشفوى ؛ فأصحابها لم يتوصلوا حتى إلى استقراء متن الألفية ، ولم يستخرجوا منه المبادئ، ولم يصوغوا على أساسه القواعد والقوانين والنواميس .

وأنها مجموعة من التخريجات والتعليلات التى لا تتأتى على بال أحد والتى لم تخطر على خاطر صاحب الألفية نفسه ، ولكن أصحابها ينطلقون من قاعدة معينة من قواعد أسلافهم أو من بيت من أبيات الألفية ، ثم يفكرون بما يمكن أن يدخلوا تحته من قضايا لغوية ، فيفرضون المشكلات بطريقة تداعى الأفكار ، ويوردون الحُجَج[١٠] .

---

[١٠] د . ريمون طحان : فنون التقعيد وعلوم الألسنية ، ص٤٩ ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ١٩٨٣م .

مما يدلك على أن هذه المنظومة النحوية لم يتسر النحو بل أحوجت الدارس والمتعلم إلى جهد أكبر فى استيعاب البيت المنظوم أولاً وحل عُقده ورموزه وإدراك الصعب من اللغة فيه أضف إلى ذلك استيعاب الشرح الذى كُتب عليه وتحليل الشواهد وبذلك تكون المنظومة قد فقدت مِزيتها فى الاختصار فعادت الشروح إلى ما دُوّن فى كتب النحو القديمة وأُضيفَ إليها التبسيط وفك ألغاز البيت المنظوم .

فانظر إلى الأشمونى أحد شراح ألفية ابن مالك نجده يسلك طرقاً متعددة فى شرحه لألفية ابنِ مالك فهو يورد البيت كله مرة ، ثم يعلق عليه وقد يورد البيت ثم كلمة كلمة ثم يشرحه كذلك كلمة كلمة وقد يبدأ الباب النحوى بمقدمة من عنده وأحياناً يذكر أكثر من بيت ثم يشرع فى شرحها وأحياناً يعرب أبيات الألفية وهكذا . فالأشمونى فى شرح الألفية معنّى بتحليل البيت ومقابلة كلام الناظم فى التسهيل والكافية وغيرهما بكلامه من الألفية ثم لازمته التنبيهات يضع فيها ما يريد التعليق عليه من مخالفة الناظم أو شرح كلمة لُغوية . فهو مثلاً يبدأ باب (الكلام وما يتألف منه) هكذا الأصل : "هذا باب شرح الكلام وشرح ما يتألف الكلام منه اختصره للوضوح (كلامنا) أيها النحاة (لفظ) أى صوت مشتمل على بعض الحروف تحقيقاً كزيد أو تقديراً كالضمير المستتر (مفيد) فائدة يحسن السكوت عليها (كاستقم) فإنه لفظ مفيد بالوضع ، مخرج باللفظ غيره من الدوال مهما ينطبق عليه فى اللغة كلام كالخط والرمز والإشارة وبالمفيد المفرد نحو زيد والمركب الإضافى نحو غلام زيد

والمركب الإسنادى المعلوم مدلوله ضرورة كالنار حارة وغير المستقل كجملة الشرط نحو إن قام زيد وغير المقصود كالصادر من الساهى والنائم .

(تنبيهات) :

الأول : اللفظ مصدر أريد به اسم المفعول أى الملفوظ به كالخلق بمعنى المخلوق .

الثانى : يجوز فى قوله : (كاستقم) أن يكون تمثيلاً وهو الظاهر فإنه اختُصر فى شرحِ الكافية على ذلك فى حد الكلام ولم يذكر التركيب والقصد نظراً لأن الإفادة تستلز مهما ، لكنه فى التسهيل صرح بهما وزاد فقال : الكلام ما تضمن من الكلم إسناداً مفيداً مقصوداً لذاته فزاد لذاته قال : لإخراج نحو : قام أبوه من قولك : جاءنى الذى قام أبوه وهذا الصنيع أولى لأن الحدود لا تتم بدلالة الالتزام ومن ثم جعل الشارح قوله (كاستقم) تتميماً للحد .

الثالث : إنما بدأ بتعريف الكلام لأنه المقصود بالذات إذ به يقع التفاهم .

الرابع : إنما قال (وما يتألف) منه ولم يقل وما يتركب لأنه التأليف كما قيل أخص إذ هو تركيب وزيادة(١١) .

وفك عقد نظم البيت يعد عبءً إضافياً على كل من الشارح والمتعلم فالشارح لابد أن يستعرض ثقافته الموسوعية والمتعلم عليه عبء إدراك التحليل وطريقته ، ومبررات هذا التحليل من

---

(١١) شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك ، ج١ ، ص٢٠ .

الاستعمال اللغوى وأى عناء فى هذا فلأشمونى يقول تعليقاً على قول ابن مالك :

٥٨٨ ـ وأيها مصحوب أل بعد صفة

يلزم بالرفع لدى ذى المعرفة

"يجوز فى ضبط هذا البيت أن يكون (مصحوب) منصوباً فأيها مبتدأ ويلزم خبره ، (ومصحوب) مفعول مقدم بيلزم (وصفة) نُصب على الحال من (مصحوب أل) وبالرفع فى موضع الحال من مصحوب ال (بعد) فى موضع الحال مبنى على الضم لحذف المضاف إليه وهو ضمير يعود إلى أى والتقدير (وأيها يلزم) . (مصحوب أل) حال كونه صفة لها مرفوعة واقعة بعدها ويجوز أن يكون مصحوب محذوف أى يلزمها ويجوز أن يكون (صفة) هو الخبر والمراد إذا توديت أى فهى نكرة مقصودة مبنية على الضم وتلزمها (ها) التنبيه مفتوحة وقد تضم لتكون عوضاً عما فاتها من الإضافة وتؤنث لتأنيث صفتها نحو ياأيها الإنسان ، يا أيتها النفس ، ويلزم تابعها الرفع"[١٢] . هذا النص آثرنا أن ننقله لنبين طريقة الأشمونى فى شرح بيت بدا له أن تركيبه غريب .

محور التصنيف :

منهج نَظْمِ القواعد واختصارها على طريقتها فى الاختصار والشمول هو منهج ذو أبعاد تعليمية معيارية ذات اتجاه يعدّ مزيجاً للاتجاهات النحوية التى ظهرت فى البيئات العلمية العربية ومحور

---

[١٢]شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك ، ج٣ ، ص١٥٠ .

منظومة ابن مالك هو المعمولات مما أتاح له مجالاً للتشقيق والتفريع فى الأبواب النحوية وفقاً لوظائف هذه المعمولات مما لم يترك مجالاً لدراسة المركبات والأساليب إلا فى إطار عرض الوظائف النحوية للمعمولات فمنها المفرد وشبه الجملة والجملة عرضت فى إطار أبواب تتعلق بالخبر أو الحال أو النعت على سبيل المثال .

وهذه النظرة القائمة على محور المعمولات كانت نظرة تعليمية مناسبة للفكر لما فيها من ترابط بين المسائل فى الأبواب وذلك يساعد المتعلم على الترتيب الذهنى وعلى التذكر أيضاً . وظل نحو الألفية يبدأ بالجزئيات أملاً فى الوصول إلى الكليات ، وظلت المركبات محصورة فى الجملة الاسمية والجملة الفعلية وشبه الجملة، وظل تعليم النحو فى إطار تبويبه بعيداً عن الأساليب الإنشائية والأساليب الخبرية بأنواعها ، وظل نحو الألفية مقيداً ببيان الوظائف النحوية للمفردات وعلاماتها المعروفة بعلامات الإعراب فعقد باباً للمبتدأ ، وثانياً للخبر ، وثالثاً للفاعل ، ورابعاً لنائب الفاعل ...إلخ . ذكر (المقرّى) : "أن ابن مالك "كان أكثر ما يستشهد بالقرآن فإن لم يكن فيه شاهد عدل إلى الحديث ، وإن لم يكن فيه عدل إلى أشعار العرب"[١٣] . ومعنى ذلك أن الأصول التى يقوم عليها منهج ابن مالك هى : الاستشهاد بالقرآن الكريم ، ثم الاستشهاد بالحديث الشريف ، ثم الاستشهاد بأشعار العرب . وابن

---

[١٣] المقرى . نفح الطيب . ج٢ . ص٢٢ :

مالك ممن نادوا بالاستشهاد بالحديث الشريف لكن طاقة النظم لم تُمكنْه من عرض أفكاره الخاصة بل كان يعمد إلى عرض ما يتعلقُ بآراء الكوفيين أو البصريين أو البغداديين دون أن يضعَ لنفسِه رأياً خاصاً ودون أن يبدى وجهة نظره فى الاستشهاد بلغة الحديث الشريف . فهذه المنظومة حققت مطلبين متعارضين وهما : الاختصار فى عرض القواعد والشواهد والأمثلة ، وكذا شمول المنظومة لأبواب النحو والصرف بالرغم من أن ابن مالك قدم هذه الوسيلة التعليمية الجديدة هو وابن معط على أنها ثورة فى التصنيف تختلف عما سبقها من مؤلفات النحو ومطولاته مما دعا ابن مالك لأن ينقد ابن الحاجب وكذا الزمخشرى فيصفهما بالضعف بالرغم من أن الزمخشرى - وحسب زعمه فى كتابه (المفصّل) ـ لم يترك مسألة واحدة من مسائل كتاب سيبويه وقضايا إلا وضمّنها كتابه ولذا جاء (المفصّل) جامعاً وشاملاً لكنه يختلف فى التصنيف عن كتاب سيبويه من حيث تقسيمه (للمفصل) إلى أجزاء وفقاً لأقسام الكلام العربى . وابن الحاجب تأثر بالزمخشرى غير أنه فصل مباحث الصرف فى مؤلف مستقل هو (الشافية) بينما امتزجت أبواب النحو بأبواب الصرف عند الزمخشرى لكنه كان مزجاً متناسباً متوازناً . وابن مالك جمع مباحث النحو ومباحث الصرف فى منظومة واحدة وإن تداخلت بعض مسائل الصرف : كالتعدّى ، واللزوم فى باب الفاعل ، وكذا أبنية المصادر ، والمشتقات فى باب ما ينوب عن الفعل فى العمل أى بعد باب الإضافة .

وقد وظف ابن مالكٍ الأمثلة المتعددة فى شغل مساحة البيت المنظوم بل شغل مساحتى بيتين بقوله :

١٢٦ ـ وَهَلْ فَتىً فِيكُمْ فماخِلُ لَنَا وَرَجُل مِنَ الْكِرَامِ عِنْدَنَا

"(وهل) حرف استفهام لطلب التصديق ، و (فتى) مبتدأ وسوغ الابتداء به تقدم الاستفهام عليه ، و (فيكم) خبر المبتدأ ، و(فما) الفاء عاطفة ، وما نافية ، و (خل) بكسر الخاء مبتدأ ، و(لنا) خبره ، و (ورجل) مبتدأ ، و(من الكرام) نعته ، و(عندنا) خبر المبتدأ ."

وقد أشار فى هذا البيت إلى أنه يسوغ الابتداء بالنكرة أيضاً ، إذا تقدم عليها استفهام ، نحو : "هل فتى فيكم" أو يتقدم عليها نفى ، نحو : "ما خل لنا" أو أن توصف ، نحو : "رجل من الكرامِ عندنا" .

وقال ابن مالك :

١٢٧ ـ ورَغْبَةٌ فى الخَيْرِ خَيْر وَعَمَلْ بِرٍّ يَزِينُ وَلْيُقَسْ مَا لَمْ يُقَلْ

"و(رغبة) مبتدأ وهو مصدر رغب ومسوغ الابتداء به عمله فى المجرور بعده ، و(فى الخير) متعلق به ، و(خير) خبر المبتدأ ، و(عمل) مبتدأ ، و(بر) بكسر الباء مضاف إليه وجملة (يزين) بفتح الياء من الفعل والفاعل خبر المبتدأ ، و(ليقس) فعل مضارع مبنى للمفعول مجزوم بلام الأمر وحقها الكسر إذا خلت عن العطف بالواو والفاء وثم ومعه يجوز تسكينها كما هنا ، و(ما) موصول ـ اسم ـ فى موضع رفع بالنيابة عن الفاعل ليقس ، و(لم) حرف نفى وجزم ، و(يقل) فعل مضارع مبنى للمفعول ونائب الفاعل مستتر فيه وهو مرفوعة صلة ما الأصل مبتدأ وأشار هنا إلى أمرين من الأمور التى يجوز فيها الابتداء بالنكرة ، وهما : أن تكون عاملة ،

نحو : "رغبة فى الخير خير" واقتصر ابن مالك على هذه المواضع . و(ليقس) : أى على ما قيل ، ما لم يقل : أى من بقية أنواع المسوغات .

وقد أوجز فى هذه الجملة الأخيرة ما يكفى لحشو عشرة أبيات أو أكثر وهو ما لم يفعل فى مواضع كثيرة من النظم وقد أوصل الشراح عدد المسوغات إلى ثلاثين مسوغاً .

فأول كتاب شامل فى النحو هو كتاب سيبويه المتوفى سنة (١٨٠هـ) ، ويجئ بعده من حيث الشمول كتاب "المفصل" للزمخشرى المتوفى سنة (٥٣٨ هـ) وبين عصرى هذين المؤلفين أكثر من ثلاثة قرون ونصف قرن ظهرت فيها بعد الكتب النحوية وتلاهما أيضاً العديد من المؤلفات النحوية وكانت المنظومة من بينها فتأثرت بما سبقها وأثرت فيما تلاها .

ومنهج المنظومة النحوية وليد اعتبارات متعددة منها طبيعة العلم المنظوم وهو علم النحو والعلماء الذين سبقوا الناظم والمرحلة التى نُظمت فيها القواعد من عمر التأليف النحوى وتأثر المنظومة بمناهج سابقة فى التصنيف وتأثيرها فيما تلاها من أعمال نحوية جمع سيبويه فى كتابه حصاد أشياخ عصره فى علم النحو ، وأرسى كتاب سيبويه أموراً صارت مسلمات أو شبه مسلمات وكان لها أثرها البارز فى النظرة للنحو العربى حتى اليوم . وتتلخص هذه الأمور فى التقسيم الثلاثى لأجزاء الكلام ، والإعراب ، والعوامل ، والعلل . فأقسام الكلام : اسم وفعل وحرف ، والأسماء والأفعال منها ما هو معرب وما هو مبنى ، والأصل فى الأسماء الإعراب ،

والأصل فى الأفعال البناء ، أما الحرف فلا يزول عنه البناء . والعوامل منها ما يرفع أو ينصب أو يخفض الأسماء ، وما ينصب أو يجزم الأفعال ، والعوامل إما أسماء وإما أفعال وإما حروف ، وقد تكون العوامل معنوية : كالابتداء وتجريد المضارع من عوامل النصب وعوامل الجزم . واحتل الإعراب والبناء المرتبة الأولى فى مفهوم علم النحو وسمى "علم الإعراب" بمعنى تغيير أواخر الكلم لتغيير العوامل الداخلة عليها .

ومن مؤلفات ابن معطٍ منظومته "الدّرة الألفية فى علم العربية" ، وقد انتهى منها عام (٥٩٥ هـ) بدمشق كما يقول حاجى خليفة[١٤] . أو بالقاهرة كما يقول آخرون[١٥] وقد ظَفِرتْ هذه الألفية بشراح كثيرين فى الشرق والغرب ، وعلى الرغم من ظهور ألفية ابن مالك بجانبها طوال القرنين السابع والثامن للهجرة لكن نالت ألفية ابن مالك شهرة واسعة النطاق . وأهم الفروق بينهما تُظهر بعض الحقائق فى كل منهما :

من ناحية الوزن : نرى أن ألفية ابن معطٍ مزيج من الرجز والسّريع ، قال ابن معطٍ :

لا سيما مشطور بحر الرجز إذا بُنى على ازدواج موجز

أو ما يضاهيه من السريع مزوج المشطور كالتصريع ، وألفية ابن مالك من بحر واحد من كامل الرجز أو مشطوره . ولا شك أن الأبيات التى ليست من بحر واحد تضطرب فيها الأنغام الموسيقية

---

(١٤) حاجى خليفة ، كشف الظنون ، ١ نهر ١٥٥ .

(١٥) ياقوت الحموى ، معجم الأدباء ، ج٢١ ، ص٣٦ ، مطبعة الحلبى ، ١٩٣٨ .

وتكون ثقيلة على السمع يصعب حفظهـا ولا ينقـاد وزنهـا فـى نسـق واحد عكس الأبيات التى من بحر واحد .

ومن هنا كانت ألفية ابن مالك ألصق بالنفس ، وأسهل فى الحفظ من ألفية ابن معط . وابن معط نـراه فـى ألفيتـه يبتعد عـن الإيجـاز الذى هو من طبيعـة المتـون وبخاصـة المتـون النظميـة فيطنـب فـى ألفيتـه ، ويسـتقصى أكـثر المسـائل فـى حيـن أن ابـن مـالك يجعـل الإيجاز طابعاً لألفيته فابن معط مثلاً حينما أراد أن يمثل الكلام أتــى بمثالين فقال :

اللفظ إن يفد هو الكلام نحو مضى القوم وهم كرام

أوجزهما ابن مالك فى مثال واحد تدل عليـه كلمـة واحـدة وهـى كلمة "استقم" من قوله : كلامنا لفظ مفيد "كاستقم" .

وتنظيم الأبواب وتقسيمها : طريقة ابن معط فى ألفيتـه أنـه كـان يجمع الأبواب المتناسبة فى باب واحد ولذا جعلـت ألفيتـه فـى واحد وثلاثين باباً .

وابن مالك كان أدق من ابن معط فى ترتيب الأبواب وتقسيمها ، وتنظيمها فجعل كل باب وحدة مسـتقلة تتميز عـن غيرهـا ولـذا فقد كـانت ألفيتـه فـى ثمـانين بابـاً أو عنوانـاً ، حتـى لا تختلـط القواعـد بعضها ببعض ، وحتى تتضـح مسـائل كـل بـاب علـى حـدة ، وهـذا أدعى إلى الضبط والإتقان وأسهل فى الحفظ والإلمـام . وألفيـة ابـن مالك حظيت بدراسات كثيرة فى جميع العصور والأزمنة إلى يومنـا هذا على حين ظلت ألفية ابن معط حبيسـة فـى مخبئها علـى الرغم

من بعض الشروح التى كانت عليها ولم يُتحْ لها الخلود كما أُتيحَ لألفية ابن مالك .

وعلى الرغم من هذا كله فإن لابن معطٍ سبق الفضل حيث استطاع أن ينظم القواعد النحوية فى ألف بيت أو تزيد وهو وإن لم تصل ألفيته إلى الدرجة التى وصلت إليها ألفية ابن مالك من حيث الضبط والتنظيم والدقة والترتيب فقد عبّد الطريقَ لغيره ، ووضع اللبنة الأولى فى البناء لكل ألفية ظهرت من بعده[١٦] . اتبع ابن مالك فى المنظومة النسق الذى اتبعه فى كتاب (التسهيل) مع تعديل يسير يتلخص فى أنه أخر فى الألفية الحديث عن الأفعال الجامدة وما يعمل من الأسماء عمل الأفعال ، وجعلها بين المجرورات والتوابع . وإن النظرة القائمة على المحاور فى التصنيف كانت نظرة تعليمية مناسبة للفكر لما فيها من ترابط بين المسائل فى الأبواب وذلك يساعد المتعلم على الترتيب الذهنى وعلى التذكر أيضاً ، وقد شاع من الأنماط النحوية فى التأليف ما قام على محور المعمولات وبخاصة بعد ابن مالك .

والمنظومة النحوية تعدُّ حلقة من حلقات النحو العربى ومرحلة من مراحل التأليف فيه أثرت فيما تلاها من مؤلفات . فبعد عصر السيوطى ظهرت كتب متنوعة فى النحو كان أغلبها شروحاً أو حواشى أو تعليقات على ما سبقها من مؤلفات . وهناك طائفة أخرى

---

[١٦] دكتور عبد العال سالم مكرم ، المدرسة النحوية فى مصر والشام فى القرنين السابع والثامن من الهجرة ، ص١٧٨ ـ ١٧٩، دار الشرق القاهرة ، ط١ ، ١٩٨٠م .

من الكتب التى أُلفت على نسق متدرج قريب المنال لسد حاجة تلاميذ المدارس الابتدائية والثانوية . وأغلب هذه الكتب سار فى ترتيب المسائل النحوية مبتدئاً بالكلام عن الاسم فالفعل فالحرف وما يتدرج تحت كل منها من أقسام ، ثم الكلام عن بعض النواحى الصرفية كالتصغير والنسب والإعلال والإبدال .

وهذه هى المادة العلمية التى تضمنتها الكتب النحوية فى مراحلها المختلفة سارت متدرجة فى نحوها واكتمالها ، وسلك العلماء فى ترتيبها طرقاً مختلفة ولكنها ترمى إلى غاية واحدة هى البحث فى الكلمة وأحوالها وأوضاعها وضبط آخرها ، وفى العوامل التى ينشأ عنها ذلك ، وفى صوغ الكلمات واشتقاقها أو فى الجملة وأنواعها ، والحقيقة أن المختصرات على عمومها لا تُعنى بنظام الجملة فى العربية لكننا نجد علاجاً لذلك عند ابن هشام وابن عصفور من النحاة المتأخرين .

وابن مالك فى منظومته لا يَمزجُ أبواب النحو بأبواب الصرف مزجاً تاماً بل بقدر ما تحتاج أبواب النحو إلى خصائص صرفية كما فى باب (الفاعل) والمشتقات التى تعمل عمل الفعل لكنه فى الثلث الأخير من منظومته ينصرف إلى أبواب الصرف وإن لم تفِ هذه المساحة بدراسة الصرف فيعدل عن ذلك إلى تأليف لاميته المشهورة (بلامية الأفعال) بالرغم من أن المرحلة التى ألف فيها ابن مالك منظومته كانت قد سبقتها مراحل تفصل كتب الصرف عن النحو أى منذ أن ألف أبو عثمان المازنى كتابه (التصريف) الذى شرحه تلميذه ابن جنى (ت ٣٩٢هـ) كذلك صنف ابن الحاجب

شافيته فى التصريف وبعد ابن مالك ألف ابن عصفور الأشبيلى كتابه (الممتع فى التصريف) .

وذكر ابن عصفور فى مقدمته لكتابه :

" .... إن النحويين قد هابوا علم التصريف لغموضه ، وتركوا التأليف فيه والتصنيف إلا القليل منهم"(١٧) . وهو يشير إلى شرف علم التصريف : لاحتياج جميع المشتغلين باللغة العربية من نحوى ولغوى إليه ايما حاجة ، لأنه ميزان العربية ، ألا ترى أنه قد يؤخذ جزء كبير من اللغة بالقياس ولا يُوْصَلُ إلى ذلك إلا من طريق التصريف ، نحو قولهم : كل اسم فى أوله ميم زائدة مما يعمل به وينقل فهو مكسور الأول نحو : مطرقة ، ومروحة إلا ما استثنى من ذلك . فهذا لا يعرفه إلا من يعلم أن الميم زائدة ، ولا يعلم ذلك إلا من جهة التصريف .

والحقيقة أن دراسات التصريف المستقلة قد بدأت بواكيرها منذ بدء التأليف فى علم النحو فابن كيسان (ت ١٢٥هـ) رُوى أنه ألف كتاباً مستقلاً فى التصريف لكنه لم يصل إلينا لكن فى ذلك إشارة إلى الاستقلال المبكر لعلم التصريف والنحو لا يغنى عن مسائل التصريف التى هى ضرورية فى الأحكام الإعرابية خصوصاً فى تعدّى الأفعال ولزومها وعمل المشتقات عمل الفعل ففى قولنا : (محمد قارئ كتاباً) فصيغة اسم الفاعل (قارئ) هى التى عملت النصب فى (كتاباً) وفى قول الله تعالى (وكلبهم باسط ذراعيه

---

(١٧) ابن عصفور ، الممتع فى التصريف ، ج١ ، ص٨٢٧ ، والنص ص٢٢ ، تحقيق د/ فخر الدين قباوة ، ط٣ ، بيروت ١٩٧٨م .

بالوصيد) [١٨] ذراعيه : مفعول به منصوب بالياء لأنه مثنى حذفت منه النون للإضافة وقد أعاننا على ذلك معرفتنا لصيغة اسم الفاعل (باسط) وأنها تعمل عمل الفعل (يبسط) والفعل متعدى ، وفى كتاب سيبويه لم يستقل التصريف عن النحو وهذا هو ما حدث فى كتاب (المفصّل) للزمخشرى الذى يعرض للنسب والتصغير ضمن الجزء الخاص بدراسة الأسماء وتَأثرُ ابن مالك فى منظومته بكل هؤلاء لا ننكره بالرغم من وصف ابن مالك للزمخشرى بأنه نحوى ضعيف فابن مالك خلصّ منظومته من الحدود والتعريفات ففى باب (المبتدأ) يقول : (مبتدأ زيد وعاذر خبر) ثم يبين التركيب الجامع لهما فيقول (فى قولنا زيد عاذر من اعتذر) وسيبويه يمثل للاسم تمثيل مباشر فيقول : (الاسم رجل وفرس) [١٩] لكن الذى دعى ابن مالك إلى ذلك هو قصور طاقة النظم .

أورد ابن جنى تعريفاً للنحو فى كتابه (الخصائص) إذ يقول : "النحو هو انتحاء سمت كلام العرب فى تصرفه من إعراب وغيره: كالتثنية ، والجمع ، والتحقير ، والتكسير ، والإضافة والنسب ، والتركيب ، وغير ذلك ، ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها فى الفصاحة فينطق بها وإن لم يكن منهم ، وإن أشذ بعضهم

---

(١٨) سورة الكهف ١٨ .

(١٩) انظر سيبويه الكتاب ، ج١ ، ص٩ ، ط عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٦٦ ـ ١٩٧٧م .

ردّ به إليها . وهو في الأصل مصدرُ شائع ، أى نحوت نحواً ، كقوله : قصدت قصداً ثم خص به انتحاء هذا القبيل مكن العلم"[٢٠] .

- فالنحو عند ابن جنى على هذا المفهوم هو محاكاة العرب فى طريقة كلامهم تجنباً للحن ، وتمكيناً للمستعرب فى أن يكون كالعربى فى فصاحته وسلامة لغته عند الكلام .

فالعلم الذى يضع القواعد التى تحقق هذين الغرضين هو علم النحو .

واختلاف هذه التعاريف يرجع إلى تحديد دائرة القواعد النحوية. فمن الباحثين من يرى أن تشتمل هذه القواعد على أساليب اللغة من جميع نواحيها ، ومنهم من يقصرها على ضبط أواخر الكلمات ومعرفة بنيتها واشتقاقها وتصرفها .

ولعل منشأ هذا الخلاف فى تحديد دائرة النحو راجع إلى صلة هذا العلم بالفروع الثقافية العربية الأخرى . فإن علم النحو هو فرع من علوم العربية وقد كانت هذه العلوم فى أول الأمر تشمل النحو واللغة والأدب ثم اتسع نطاقها فشملت الأخبار والسير ، ثم ازدادت فروعها فأصبحت اثنى عشر علماً هى :

اللغة ، الصرف ، الاشتقاق ، النحو ، المعانى ، البيان ، الخط ، العروض ، القافية ، قرض الشعر ، إنشاء الخطب ، الرسائل والتاريخ . وكان البحث فى النحو فى الأدوار الأولى للثقافة العربية ممتزجاً باللغة والأدب وعلم القراءات .

---

[٢٠] ابن جنى ، الخصائص ، ج١ ، ص٣٤ ، تحقيق محمد على النجار ، دار الكتب المصرية ، ١٩٥٢ - ١٩٥٦م .

ثم اقتضت طبيعة التدرج والتعمق في البحث أن يستقل النحو عن فروع العربية الأخرى ، وأن ينفرد به بعض العلماء ، وأن تظهر فيه مؤلفات مستقلة . ولا شك أن علم النحو إنما هو طائفة من خصائص اللغة العربية ، وليست الناحية الإعرابية والصرفية هى كل خصائص اللغة ولكنها ناحية لها أهميتها فى اللغة العربية . ولعلها الناحية التى كان تسرب اللحن منها إلى الأذهان داعياً لوضع قواعد لاجتناب هذا اللحن .

لقد اتجه النحويون فى مصنفاتهم إلى مسائل النحو لمعرفة أحكام التراكيب وبنية المفردات ، ولكنهم لم يقفوا فى اتجاههم التعليمى عند ذلك بل امتدت مصنفاتهم إلى تناول الفصائل النحوية والصرفية فأفردوا لكل منها مسائل مفرقة فى كتب النحو العامة فيصعب على المتعلم تتبعها وجمعها ، فجاءت لهم مصنفات بعضها خاص بالحروف ، وبعضها تناول الأفعال ، وبعضها عالج التثنية والجمع، وبعضها تجرد للمصادر ، وبعضها عرض للممنوع من الصرف ، وبعضها تناول المذكر والمؤنث ، وبعضها اختص بالمقصور والممدود . فمن الذين أفردوا كتباً للحروف[٢١] : المبرد ، ، وابو عمرو الشيبانى ، والرمانى ، والهروى ، والرازى .

---

[٢١] النديم ، الفهرست ، ص٦٥ ـ ٧٥ وما بعدهما ، المكتبة التجارية بالقاهرة ١٣٤٨هـ ـ ١٩٢٨م .

ومن الذين أفردوا كتباً للأفعال[٢٢] : أبو عبيدة ، وقطرب ، والأصمعى والفراء ، وابن السكيت ، والأحول ، وأبو زيد ، والتوزى ، والزجاج ، وابن دريد .

ومن الذين أفردوا كتباً فى التثنية والجمع[٢٣] : الجرمى ، والفراء ، والأخفش الصغير .

ومن الذين أفردوا كتباً فى المصادر[٢٤] : الأصمعى ، والكسائى، والفراء ، ونفطويه ، والنضر بن شميل ، وأبو زيد ، وإبراهيم بن أبى محمد اليزيدى .

ومن الذين أفردوا كتباً فى المقصور والممدود[٢٥] : أبو محمد اليزيد ، والفراء ، وأبو جعفر الطبرى ، وأبو بكر بن شقير ، وأبو الحسن بن كيسان ، وأبو بكر بن محمد بن عثمان الجعد ، وأبو الطيب الوشاء ، وابن درستويه ، وابن التسترى ، وأبو الحسين عبدالله الخزاز ، وابن خالويه ، وأبو الجود العجلانى ، والمبرد ، وأبو بكر الأنبارى .

---

[٢٢] المصدر السابق ، ص٥٩ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٧٤ ، ٧٩ ، ٨٧ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٩٢ .

[٢٣] المصدر السابق بالترتيب ، ص٦٢ ، ٧٣ ، ٩١ .

[٢٤] المصدر السابق بالترتيب ، ص٦١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٩٠ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٥٦ .

[٢٥] المصدر السابق بالترتيب ، ص٥٦ ، ٧٤ ، ٦٥ ، ٨١ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ٦٨ ، ١٤٩ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ٦٥ ، ٨٢ .

ومن الذين أفردوا كتباً في المذكر والمؤنث[٢٦] : الفراء ، والمبرد ، وابن الخزاز ، وابن كيسان ، وأبو بكر محمد بن عثمان الجعد ، وإبن الأنباري ، وأبو جعفر الطبري ، وابن درستويه ، وابن خالويه ، وابن جني ، وأبو الجود العجلاني ، وابن التستري ، وأبو الطيب الوشاء ، والأصمعي ، وأبو القاسم بن سلام ، وابن السّكيت ، وأبو حاتم سهل بن محمد السجستاني .

انفرد الناظم بكتابه في التصريف (لامية الأفعال) لكنه صنفها عندما أحس بقصور طاقة النظم عن استيعاب مسائل التصريف ودقائقه غير أن هذه الكتب المتخصصة أدت إلى كثرة التشقيق والتفريع ومن ذلك كتاب (شذا العرف في فن الصرف) (للشيخ أحمد الحملاوي) الذي قسّم الأفعال فيه وفق أزمنتها وكان منها المضارع الذي شققه إلى : مضارع دالّ على الحال ، وأخر دالّ على الاستقبال ولكي يميزهما عن بعضهما جعل للفعل المضارع الدالّ على الحال أدوات تعينه للحال عند اتصالها به هي (لام الابتداء) و (لا ، وما) النافيتان ، نحو "إني ليحزنني أن تذهبوا به"[٢٧] . "لا يحب الله الجهر بالسوء من القول"[٢٨] . "وما تدري نفس ماذا

---

[٢٦]المصدر السابق بالترتيب ، ص٧٤ ، ٦٥ ، ٩٠ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٨٢ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٩٢ ، ٩٥ ، ٩٢ ، ١٤٩ ، ٩٣ ، ٦١ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٦٤ .

[٢٧] يوسف ١٣ .

[٢٨] النساء ١٤٨ .

تكسب غداً"[٢٩] . فحُزْنُ يعقوب ـ فى الآية الأولى سيقع بعد ذهاب أبنائه بيوسف ولم يكن ذلك قد وقع وقت الكلام . وفى الآية الثانية دلالة على المستقبل فالله لا يحب الجهر بالسوء دائماً ، أى فى الحاضر والمستقبل . وفى الآية الثالثة دلالة أيضاً على المستقبل لأن الغيب مسطور فى الحاضر والمستقبل بالإضافة إلى قوله تعالى : (غداً) . ولعل رغبة المؤلف فى التشقيق هى التى دفعته إلى ذلك وربما لم تُسعفه الشواهد وربما وقع فى تناقض حين أورد قوله تعالى (وأن تصوموا خير لكم) [٣٠] . حين جعل (أن) من الأدوات التى تحيل الفعل للاستقبال وقد أوردها فى قوله (وإنى ليحزننى أن تذهبوا به) [٣١] .فالمصدر (أن تذهبوا) هو فاعل الفعل (يحزننى) وهو مرتبط بزمنه فالذهاب مرتبط بالحزن . والحقيقة أن حروف المضارعة (أنيت) تكفى لدلالة الفعل على الزمن الحال دون الحاجة إلى لام الابتداء .

الاتجاه التعليمى والتصنيف النحوى :

اتجه النحو هذه الوجهة فى التصنيف بسبب النهج التعليمى الذى كان سائداً إذ لم تكن هناك فى البيئات العربية مدارس نظامية متخصصة وإنما اعتمدت على النحوى نفسه فى كل شئ أو على الشيخ الذى يجلس بين تلامذته وظل هذا الأمر سائداً إلى عهد قريب

---

(٢٩) لقمان ٣٤ و الشيخ أحمد الحملاوى : شذا العرف فى فن الصرف ، ص٢٥ ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى ، ط٢١ ، القاهرة ، ١٩٧٩م .

(٣٠) سورة البقرة ١٨٤ .

(٣١) سورة يوسف ١٣ .

وكان الناظم من هؤلاء الشيوخ الذين تُعقدُ لهم حلقات الدرس فى المسجد فيلقى على تلامذته دروسه .

وقد كان كثير من النحويين معلمين مؤدبين كما كان يَرجِعُ عِلْيَةُ القوم إلى كبار النحويين فى اختيار المعلمين لأبنائهم وامتحانهم أيضاً فبعض الأكابر من السُراة يطلبون من المبرد أن يختار معلماً لأبنائهم فيختارُ لهم تلميذه الزجاج(٣٢) ويطلب عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد من المبرد مؤدباً لابنه القاسم فيدله على الزجاج ومكانه(٣٣) . ويطلب الخليفة الوائق من المازنى أن يمتحن المعلمين الذين يختلفون إلى أولاده ليُبْقِى منهم من فيه نفع لهم(٣٤) .

ومن النحويين المعلمين المؤدبين أبو محمد اليزيدى (ت ٢٠٢هـ) فكان مؤدباً لولد يزيد بن منصور ، ثم اتصل بالرشيد فجعله مؤدب المأمون . وكان اليزيدى يُعلِّمُ بحذاء دار أبى عمرو بن العلاء ، وكان أيام الرشيد مع الكسائى ببغداد فى مسجد واحد يقرئان الناس(٣٥) .

وعلى ابن المبارك الأحمر (ت ٢٠٦ أو ٢٠٧هـ) كان مؤدباً للأمين(٣٦) ، والفراء (ت ٢٠٧هـ) قد وكّله المأمون ليلقن ابنيه

---

(٣٢) كمال الدين الأنبارى ، نزهة الألباء فى طبقات الأدباء ، ص٢٤٥ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، ١٩٦٧م .

(٣٣) المصدر السابق ، ص٢٤٥ .

(٣٤) الزبيدى : طبقات النحويين واللغويين ، ص٩٢ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، مصر ١٣٩٢هـ - ١٩٧٣م .

(٣٥) كمال الدين الأنبارى ، نزهة الألباء ، ص٨١ ، ٨٢ .

(٣٦) المصدر السابق ، ص٩٧ .

النحو[٣٧] ، وأبو يوسف يعقوب بن السكيت (ت ٢٤٣هـ) كان يؤدب مع أبيه بمدينة السلام فى درب القنطرة صبيان العامة حتى احتاج إلى الكسب فجعل يتعلم النحو ، وظل يختلف إلى أهل القنطرة حتى اختلف إلى ابنى هارون وكانا يكتبان لمحمد بن طاهر ، واحتاج ابن طاهر إلى رجل يعلم ولده وجعل ولده فى حجر إبراهيم ، وقطع ليعقوب بن السكيت خمسمائة درهم ثم جعلها ألفاً ، وخرج يعقوب إلى (سر من رأى) أيام المتوكل فصيره عبد الله بن يحيى ابن خاقان عند المتوكل فضمّ إليه ولده (وأسنى) له الرزق[٣٨] . والزجاج وجهه المبرد إلى بعض الأكابر من السراة ليعلم أولادهم ، ثم صار مؤدباً للقاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد . وغير هؤلاء كثير ـ إن النحويين كان منهم بل من مشاهيرهم من تصدوا للعملية التعليمية للصغار والكبار .

النحو في الأندلس :

فظهر فى الأندلس علماء أجلاء ضارعوا علماء المشرق وعنوا أكثر ما عنوا بالعلوم الشرعية ، وبالعلوم اللغوية وبالنحو والقراءات . وقد نزح كثير منهم إلى المشرق وقاموا بالتدريس فى مساجده ومدارسه .

والاضطلاع بتدريس النحو وعلوم اللغة الأخرى فى المغرب والمشرق .

---

[٣٧] المصدر السابق ، ص١٠٣ .

[٣٨] المصدر السابق ، ص١٧٩ .

فى أيام الرشيد ، يتربع الخليل بن أحمد الفراهيدى على كرسى العلم والمعرفة العربية بوجه عام ومنها النحو بالطبع ، ويجئ سيبويه فيأخذ عن الخليل ويضعُ للناس كتابه الشهير الذى صار إماماً لكل ما كتب[٣٩] .

هكذا كانت هناك حلقات تعليمية يتصدرها أشياخ كل علم من العلوم (كحماد بن سلمة) و(الخليل بن أحمد) و(سيبويه) بالبصرة ، و(الفراء) بالكوفة ، وكان عماد هذه الحلقات الإملاء من الشيخ على تلاميذه والقراءة من أحد تلاميذه عليه ، فهذا حماد بن سلمة (ت ١٦٧هـ) يملى الحديث وقصته مع سيبويه معروفة[٤٠] ، والفراء (ت ٢٠٧هـ) يملى كتابه معانى القرآن على سلمة وأبى نصر الوراقين ولما حبسا ما كتباه عن الناس ليتكسبا خرج الفراء إلى المسجد وأملاه من جديد[٤١] ، والأثرم (ت ٢٣٢هـ) يملى شعر الراعى[٤٢] ، وأبو الحسن اللحيانى يملى النوادر[٤٣] ، وأبو بكر الأنبارى (ت ٣٢٨هـ) يملى كتبه المصنفة ومجالسه من حفظه[٤٤] ، وأبو عمرو الزاهد (ت ٣٤٥هـ) يملى من حفظه ثلاثمائة ألف ورقة لغة [٤٥].

---

[٣٩] ابن خلدون ، المقدمة (مقدمة ابن خلدون) ، ص٥٤٦ ، ٥٤٧ ، بيروت ، دار إحياء التراث العربى ، ١٩٧٨م .

[٤٠] كمال الدين الأنبارى ، نزهة الألباء ، ص٤١ .

[٤١] المصدر السابق ، ص١٠٣ .

[٤٢] المصدر السابق ، ص١٦٠ .

[٤٣] المصدر السابق ، ص١٧٦ ـ ١٧٧ .

[٤٤] المصدر السابق ، ص٣٦٥ .

[٤٥] المصدر السابق ، ص٣٧٦ .

ويقرأ كتاب سيبويه على الأخفش أبو عمر الجرمي[٤٦] ، وأبو عثمان المازني[٤٧] ، والكسائي[٤٨] ، وأبو حاتم السجستاني[٤٩] ، والرياشي[٥٠] .

ومنذ نشأة دراسة اللغة في الأندلس إلى نهاية القرن الثالث تقريباً تتضح ظاهرتان جديرتان بالتسجيل :

أولاهما : إنه مع كثرة هؤلاء العلماء في اللغة والنحو . لم يرد عنهم مؤلفات فيهما في اللغة والنحو غير ما ورد عن عبد الملك بن حبيب من أن له كتاباً في (إعراب القرآن) وما ورد من عبارات عامة عن بعضهم من أن له تأليفاً في النحو دون تحديد - كما ذكر الزبيدي عن أبي بكر بن خاطب المكفوف - ما نسب لأبي الحسن مفرج بن مالك من علماء هذا القرن أنه شرح كتاب الكسائي ، وكل هذا يؤكد أنهم كانوا معلمين لا علماء .

والظاهرة الثانية : أنهم حتى نهاية القرن الثالث لم يرد عنهم ما يشير إلى أنهم عرفوا كتاب سيبويه أو تدارسوه بينهم مع أنه قد عُرف في المشرق منذ وقت طويل في تلك الفترة التي عُرف فيها كتاب الكسائي ، إذ شاءوا لأنفسهم أن يقتصروا على الأسهل والأخف ، فنقلوا كتاب الكسائي في أواخر القرن الثاني ، ثم عكفوا

---

(٤٦) المصدر السابق ، ص١٣٣ .

(٤٧) المصدر السابق ، ص١٣٣ .

(٤٨) المصدر السابق ، ص١٣٤ .

(٤٩) المصدر السابق ، ص١٨٩ .

(٥٠) المصدر السابق ، ص١٩٩ .

عليه بعد ذلك قرناً من الزمان . أما فى القرن الرابع فقد اتخذت دراسة النحو واللغة طابعاً علمياً جاداً ، وتحول التعليم إلى علم ، واستبدل النقل بالتأليف ، وظهر التخصص فى دراسة اللغة والنحو بدل الجمع من كل فن بطرف ولهذا سببان :

الأول : رحلة كبار علماء المشرق إلى الأندلس ، وقيامهم بالتعليم والتأليف وعلى رأس هؤلاء أبو على القالى الذى مكث فى الأندلس من سنة ٣٣٠ هـ إلى سنة ٣٥٦ هـ ، وهى مدة تقرب من ثلاثين عاماً ، قام خلالها بالتثقيف والتأليف ، ومن كتبه "الأمالى والبارع فى اللغة والمقصور والممدود وكتابه فعلت وأفعلت" . وأما الأمر الثانى فهو نقل كتاب سيبويه إلى الأندلس ، وتداوله بين العلماء والعكوف على تفهمه ودراسته ، فتحول الدارسون من النظر فى النحو بطريقة سطحية إلى النظر العميق الجاد .

وعلى كل حال فقد تهيأت للأندلسيين منذ القرن الرابع أدوات الإنتاج العلمى الصحيح : من مرور فترة كافية للنضج اللغوى ، والتفاعل مع غيرهم من علماء المشرق ، والاطلاع على أهم كنوزهم فى دراسات النحو واللغة . فبدأ منذ ذلك الوقت اتجاه جديد فى دراسة اللغة عندهم والتأليف فيها .

وإذا كانت مؤلفاتهم منذ القرن الرابع تبدو فيها الجدية والعمق ، فإن جهدهم فيها – بصورة عامة – لم يخرج عن كونه مجهوداً دراسياً أكثر منه إبداعاً علمياً .

والاجتهاد هو فى : إعمال الذهن أو توليد الفكرة أو مناقشة رأى أو توجيه مثال(٥١) .

أما فى مجال التأليف فالأندلسيون وإن لم يأتوا بقواعد نحوية جديدة ، فقد اختطوا لأنفسهم طريقة تقوم أساساً على شرح مؤلفات علماء المشرق تارة ، والاستدراك على ما فاتهم تارة أخرى ، ولعل هذا المنهج فى التأليف قد ظهر أكثر ما ظهر عند الأندلسيين فى هذه المرحلة حتى غدا من سماتهم المُمَيْزَة عن الاتجاهات النحوية التى سبقتهم فى الظهور ، فلم يسيروا فى درب الاتجاه البصرى أو الكوفى ، ولم يحاولوا التوفيق بينهما ـ كما فعل نحاة بغداد ـ بل عملوا على إظهار أصالة الشخصية الأندلسية فى هذا المجال ، وكان هذا تمهيداً لظهور ما عرف فيما بعد بين علماء اللغة (بالاتجاه النحوى الأندلسى) . وقد نشأ هذا عن أن ابن حزم قد أعطى الضوء الأخضر لكل من ابى حيان الأندلسى وابن خلدون للتنبه إلى ميدان علم اللغة المقارن الذى سبقوا به اللغويين الأوروبيين بحوالى مائتى عام أى قبل تنبه (دانتى) إلى مجال المقارنة اللغوية بين فصائل اللغة اللاتينية كما يرجع إليه الفضل أيضاً إلى فتحه الباب لابن مضاء القرطبى قاضى القضاة فى ذلك الوقت لأن يهاجم نحو المشرق فى كتابه (الرد على النحاة) ، لكن ابن مالك وابن معطٍ وغيرهم كثيرون ممن رحلوا إلى المشرق لم ينفصلوا عن النحو العربى بأصوله وقواعده وشواهده وتقسيماته ذلك أنهم عاشوا

---

(٥١) د/ محمد عيد ، أصول النحو العربى فى نظر النحاة ورأى ابن مضاء وضوء علم اللغة الحديث ، ص٣٢ ـ ٣٤ ، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٨٩م .

ودرسوا درّسوا فى مصر والشام . خصوصاً فى مساجدها التى هى رمز للتراث الإسلامى وجامعة لعلوم الإسلام وطلبة العلم من المشرق والمغرب ، ولكن المنظومة النحوية لا تخلو من أن تكون ثورة فى التصنيف النحوى كما كانت تجربة ابن مُضاء ثورة على أصول النحو وأسسه والفارق أن ثورة ابن مضاء على النّحو انبعثت من المغرب لكن تجربة ابن معط وابن مالك صُنفت فى المشرق على أرضه وبين علمائه وأبنائه .

لقد اتسم التصنيف فى النحو بطابعين رئيسين :

الطابع الأول : طابع تعليمى وهو الغالب ، والغرض منه عرض مسائل النحو وقضاياه حتى يتسنى للدارسين الوقوف عليها أملاً فى استيعابها ومراعاتها عندما ينطقون أو يكتبون ، ولا نريد بالطابع التعليمى كتب النحو الخاصة بتعليم المبتدئين وإنما نُعنى به ما صنف لبيان الضوابط التى تميز الصواب من الخطأ فى التركيب وبنية المفردات وما صُنف فى تطبيق هذه الضوابط على النصوص سواء أكانت مفصلة للشادين أم مطولة للمتخصصين فالغرض منها مختصرة أو مطولة تعليم النحو وإن اختلفت المستويات التعليمية .

ولم تبرأ المصنفات ذات الطابع التعليمى من آثار الطابع النظرى الفلسفى بل طعمت حواشيها ببعض تلك الآثار بدءً بكتاب سيبويه وظلت بصماتها على صفحات بعض المصنفين وصولاً إلى المنظومة النحوية التى حققت مطلبين هما : الاختصار فى الحجم وشمول أبواب النحو وقضاياه ومسائله بل شققت هذه الأبواب وفرعتها وربما تعارض المطلبان . يقول سيبويه (ت ١٨٠هـ) فى

أول كتابه "هذا باب مجارى أواخر الكلم من العربية ، وهى تجرى على ثمانية مجارٍ . على النصب والجر والرفع والجزم والفتح والضم والكسر والوقف ... وإنما ذكرت لك ثمانية مجارٍ لأفرق بين ما يدخله ضرب من هذه الأربعة لما يُحدث فيه العامل ، وليس شئ منها إلا وهو يزول عنه ، وبين ما يبنى عليه الحرف بناء لا يزول عنه لغير شئ أحدث ذلك فيه من العوامل التى لكل عامل منها ضرب من اللفظ الحرفى ، وذلك الحرف ، حرف الإعراب"[٥٢] .

فى هذا النص يضع سيبويه نظرية العامل كاملة ، وهى تقوم على سؤال كبير هو ما علة حركات الإعراب ؛ وهذا التساؤل هو الذى وجه التفكير النحوى إلى الواجهة التى وجدناه عليها ، وهو تساؤل يبدو طبيعياً لأن بداية الخطأ فى الكلام اتصلت بظاهرة الإعراب ، ولذلك هيمن التعليل لهذه الحركات الإعرابية ومحاولة وضع قوانين للالتزام بها على التفكير النحوى العربى ، وهى غاية تطبيقية تعليمية . ولكن هذا التفكير اتخذ بعد ذلك على يد الخليل صورة النظرية العلمية المختلطة بنماذج تطبيقية وتوجيهات تعليمية. ولعل ذلك ما دعا الزجاجى (ت ٣٣٧هـ) إلى تقسيم علل النحو بما لها من صلة بأصوله إلى ثلاثة أضرب : هى العلل التعليمية ، والعلل القياسية ، والعلل الجدلية النظرية .

فأما التعليمية فهى التى يتوصل بها إلى تعلم كلام العرب "لأننا لم نسمع نحن ولا غيرنا كل كلامها منها لفظاً وإنما سمعنا بعضاً

---

[٥٢] سيبويه ، الكتاب ، ج١ ، ص١٣ .

فقسنا عليه نظيره"[٥٣] ، لما سمع قام زيد وركب زيد فهو راكب ، عرفنا اسم الفاعل فقلنا ذهب فهو ذاهب وأكل فهو آكل . ثم يقول "فمن هذا النوع من العلل قولنا إن زيداً قائم فإن قيل بما نصبت زيداً؟ قلنا (بإن) لأنها تنصب الاسم وترفع الخبرّ لأنا كذلك علمناه ونعلمه .

وكذلك قام زيد ، فإن قيل لما رفعتم زيداً قلنا لأنه فاعل اشتغل فعله به فرفعه . وهذا وما أشبهه من نوع التعليم ، وبه ضبط كلام العرب[٥٤] .

- أما العلة القياسية فيحددها الزجاجى بقوله : "فإن يقال لمن قال نصبت زيداً (بإن) فى قوله : إن زيداً قائم ، لم وجَبَ أن تَنصبَ (إن) الاسم فالجواب فى ذلك أن يقول لأنها وأخواتها ضارعت الفعل المتعدى إلى مفعول فحملت عليه فأعملت إعماله لما ضارعته" [٥٥] .

أما العلة الجدلية فهى كل ما يتصل فى مثل باب إنَّ من حيث شبهها بالأفعال فى العمل[٥٦] .

ولاشك أن الهدف التعليمى أو العلل التعليمية كما قال الزجاجى، كانت السبب المباشر للقول بالعمل تفسيراً لحركة الإعراب ، وربما

---

(٥٣) الزجاجى - الإيضاح فى علل النحو ، ص٦٤ ، دار العروبة ، تحقيق مازن المبارك ، ١٩٥٢ .

(٥٤) المصدر السابق ، ص٦٤ .

(٥٥) المصدر السابق ، ص٦٤ .

(٥٦) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

ليسهل تعلمها والالتزام بها فى الكلام . ومن ثم رأوا كما قال سيبويه أن حركات الإعراب ما هى إلا أثر لمؤثر لابد أن يكون قد أحدثها ، ومعنى هذا أنهم تصوروا أن الإعراب طارئ يَحدثُ نتيجة لوجود عامل .

ونحاة الأندلس اتجهوا إلى وضع أعمال علمية تشبه تلك التى وضعها بعض المشارقة ، ومن أولئك (خُصيب الكلبى) الذى كان له كتاب مُصنف فى اللغة يشبه (الغريب) المصنف لأبى عبيد القاسم ابن سلام . كما اتجه بعضهم الآخر إلى جلب كتب المشارقة إلى الأندلس ، ومن أولئك منذر بن سعيد القاضى المعروف بالبلوطى .

وكان أحمد بن يوسف بن حجاج بن عمير بن حبيب بن عمير من أعلم الناس بالنحو ، وأحفظهم لمسائله وكان كتاب سيبويه بين يديه لا ينى عن مطالعته فى حال فراغه وشغله ، وصحته وسقمه .

المنظومة النحوية هدفٌ للتيسير :

المنظومة النحوية شكل من أشكال تيسير علم النحو التى مر بها منذ بدء التأليف فيه . فقد لجأ النحاة إلى تيسير علم النحو بتصنيف المختصرات التى تخلو من كل حشو كما تعددت عندهم محاورَ التصنيف فكان المحور هو العامل تارة والمعمولات تارة أخرى كما كانت أقسام الكلام وفقاً لوظائفها النحوية محوراً للتصنيف النحوى . كما تدرج النحاة فى مؤلفاتهم من الأعقد إلى الأبسط وصنع ذلك ابن جنى وابن مالك وابن هشام تيسيراً على الدارسين وقام علماء النحو بشرح مؤلفاتَهم تبسيطاً لتلاميذِتهم كما شرحوا مصنفات غيرهم

وعلّقوا عليها وكان نشوء الشعر التعليمى مدعاة لنظم قواعد النحو لسرعة حفظها وتقبل الدارسين لها . وبعد مرحلة المنظومات ونشوء المدارس النظامية والمعاهد التعليمية اتجه علماء النحو إلى طرق تربوية أخرى منها : توزيع الأبواب على سِنِى الدراسة ، والتخفف من أصول النحو وفلسفته والتخفف من الحشو ومراعاة سن الدارس وملائمة المادة المدروسة لعمر الدارس وعقليته وليس من شك فى أن المنظومة النحوية عمل تربوى بكل المقاييس لأنها هدفتْ إلى توصيل النحو العربى بقواعده وشواهده وأمثلته إلى الدارسين بأيسر سبيل محبب إلى نفسه (الدارس) وهو أسلوب الشعر وإن كلّف ذلك الناظم عناءً شديداً وتطلب منه دراية واسعة بعلوم العربية . وبالرغم من أن الدراسات النحوية واللغوية قد شهدت بعد سيبويه عقولاً علمية فذة لا تقل عنه قدرة على الإبداع إلا أنهم عكفوا على كتابة شرحاً وتعليقاً واختصاراً وأصبح كثيرٌ من أعمالهم يتصل بالتحليل الجزئى دون الأصول النظرية فتحولت دراسة اللغة من منهج علمى يقوم على التحليل والاستنباط إلى دراسة هذه المسائل الجزئية فى ذاتها فتضخمت المؤلفاتُ النحوية واتسعت وظهرت المنظومات موجزة ـ كما فى ألفية ابن مالك ـ ولكنها فشلت فى تحقيق هذا الهدف لأنها جاءت فى لغة مُعمّاة ، واحتاجت المتون إلى شروح ، والشروح إلى حواش وتعليقات .

وإذا نظرنا إلى الإطار العام تبيّنا أن سيبويه بدأ بالمركبات لينتهى إلى اصغر وحدة لغوية ، وإن بدا فى الشكل أنه بدأ بالكلمة فقد كانت هذه البداية لابد منها فهى مدخل إلى دراسة المركب ولذا

لم يقف طويلاً عندها بل عرض لما لابد منه قبل دراسة المركبات والجمل التى شغلت الجزء الأعظم من كتابه ، كما نتبين أن سيبويه تناول درس اللغة فى المستوى التركيبى ، والمستوى الصرفى ، والمستوى الصوتى ولم يُهملْ المستوى الدلالى فى ثنايا المستويات السابقة .

أما إذا عدنا للبناء الداخلى للكتاب فإننا نجد سيبويه قد قسم كتابه أبواباً وهو لا يريد بالباب ما يدل على الوظيفة النحوية كباب الفاعل وباب المفعول به ، وباب النعت وباب التوكيد وباب التمييز كصنيع المتأخرين من النحويين فى مصنفاتهم ولكنه عقد باباً لكل مسألة من مسائل النحو والصرف من غير تفرقة بين المسائل الرئيسية والمسائل المتفرعة عنها[٥٧] .

وظاهرة تصنيفِ المختصراتِ فى النحو لم تتأخر كثيراً عن كتاب سيبويه إن لم تكن مصاحبة له ، (فالمقدمة فى النحو) المنسوبة لخلف الأحمر الكوفى (ت ١٨٠هـ) ، وكتاب (الجمل فى النحو) المنسوب أخيراً إلى الخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ) ، يشيران إلى هذه المصاحبة ، ومنها : (الجمل فى النحو) للخليل ابن أحمد (ت ١٧٥هـ) ، ومقدمة خلف الأحمر البصرى ١٨٠هـ تلميذ سيبويه ، ومختصر فى النحو لأبى محمد اليزيدى البصرى (ت ٢٠٢ هـ) ، ومختصر نحو المتعلمين للجرمى البصرى (ت ٢٢٥هـ) ومختصرين سعدان الكوفى الضرير ٢٣١هـ ، ومختصر فى النحو

---

[٥٧] سيبويه : الكتاب ، ص٣ : ٥ .

للكسائى (ت ١٨٩هـ) ، ومختصر فى النحو لابن قادم (ت ٢٥١هـ) ، والمدخل فى النحو والمبرد (ت ٢٥٥هـ) والمختصر لهشام الضرير (ت ٢٩٠هـ) ، ومختصر فى النحو لثعلب (ت ٢٩١هـ) ، ومختصر فى النحو لابن كيسان (ت ٢٩٩هـ) ، ومختصر فى النحو لأبى موسى سليمان الحامض (ت ٣٠٥هـ) ، ومختصر فى النحو لأبى عبد الله محمد بن العباس بن أبى محمد اليزيدى (ت ٣١٠هـ) ، ومختصر فى النحو للزجاج (ت ٣١٠هـ) ، ومختصر فى النحو لأبى بكر عبد الله بن محمد بن قشير النحْوى (ت ٣١٥هـ) ، والموجز الصغير لابن السراج الكوفى (ت ٣١٦هـ) والموجز إلى بكر محمد بن أحمد بن منصور الخياط (ت ٣٢٠هـ) ، ومختصر فى النحو لأبى الطيب الوشاء (ت ٣٢٥هـ) ، والموجز فى النحو لأبى عبد الله محمد بن عبد الله ابن موسى الكرمانى (ت ٣٢٩هـ) ، والتفاحة فى النحو لأبى جعفر النحاس (ت ٣٣٨هـ) ، والإيجاز فى النحو للرمانى (ت ٣٨٤هـ) ، والعوامل المائة للجرجانى (ت ٤٧١هـ) ومقدمة فى النحو لعلى بن فضال بن على المجاشعى (ت ٤٧٩هـ) والأنموذج للزمخشرى (ت ٥٣٨هـ) .

وتجمعُ هذه المختصرات سمة عامة مشتركة هى أن جهد المؤلف لا يقتصر على هذا المختصر وإنما صنعه خصيصاً بهدف التيسيرات على تلامذته وغالباً ما يكون له مؤلفات أخرى تعد من المطولات ويغلب على تصنيف المختصر سهولة لغته وتخففه من الشواهد والحشو والبعد عن التفريعات وأصول النحو .

فمن قبيل التيسير على الناشئة والمتعلمين لم يشأ ابن جنى[٥٨] فى كتابه (اللمع) أن يعرض لباب التنازع والاشتغال ولا للمنصوب على الاختصاص ولا للمنصوب على التحذير والإغراء ، ولا سيما الأفعال ، ولا لمواقع حذف المبتدأ وجوباً وحذف الخبر وجوباً ولا حذف عامل المفعول المطلق ، كما لم يشأ أن يعرض لبناء المشتقات وعملها ، أما عمل المصدر فقد عرج عليه فى باب الحروف الموصولة[٥٩] . كما أنه لم يشر إلى علامات أصلية للإعراب وعلامات فرعية ، ولا للإعراب المقدر . وتلك ميزة تجلت فيها قدرة ابن معطى على النظم فى عنوانات ألفيته التى صُدّرت بها الأبواب ، حيث صدّر كل بابٍ بلفظٍ ، وصاغَ رؤوسَ هذه الأبوابَ . نظماً فيقول مثلاً :

بالله ربى فى الأمور أعتصمْ ألقول فى حد الكلام والكلمْ

وقال فى باب المبنى للمجهول (ما لم يسم فاعله) :

ألفوا فيما لم يُسَم فاعله قد يَحذفُ الفاعلَ لفظاً جاهلُه

وقال فى صدارة المعرب والمبنى :

ألفوا فى الإعراب والبناء الأصل فى الإعراب للأسماء

وفى إعراب جمع المذكر :

القول فى جمع المذكر العلم والوصف والواحد فيه قد سلم

---

[٥٨] ابن جنى ، كتاب اللمع فى العربية ، ص٢٧٠ : ٢٧١ ، تحقيق د/ حسين شرف ، القاهرة ، ١٩٧٨م .

[٥٩] ثلاث رسائل لابن جنى ، ص٢٧٠ : ٢٧١ ، نشرها وجيه فارس الكيلانى ، مطبعة لنن مصر .

ويقول :

القول فيما لم يُصرف منه　　　فعلُ التعجب قد أبنتَ عنه

ويقول :

القول فى المدة للإنكارِ　　　وقفاً وما يحكى فى الاستخبارِ

ويقول :

القول فى مفسر الأعداد　　　أولها مَرتَبة الأعداد

ويقول :

القول فى التصريف وهو يشتملْ　　　على زيادةٍ وحذفٍ وبدلْ

ويقول :

القول فى الإدغام باختصار　　　وبعده ضرائر الأشعار

وعمل ابن معطٍ هذا يشابه تقسيم ابن مالك فى ألفيته لأبواب وفصول .

وقدرة ابن معطى على توضيح الموضوع الذى يتحدث عنه بأقصر الطرق وأسهل تعبير حتى يَسُهَل حفظها . فقد حصر مثلاً أوزان الخماسى فى بيت واحد ، ومثّل بكلمات دون الأوزان وذلك لسهولة حفظ الكلمات . أما الأوزان فحروفها واحدة والفرق بينها بالشكل مما يؤدى إلى صعوبة الحفظ فقال :

وللخماسى جاء قرطعب له　　　سفرجل جحمرش قذ عمله

وكذلك الحال مع أوزان الرباعى فيأتى بأمثلة محددة واضحة سهلة الحفظ فيقول :

وللرباعى قمطر سلهب　　　وزبرج ودرهم وجخدب

وعندما أراد ابن معطى الحديث عن النكرة وتوضيح خصائصها ومميزاتها بالأمثلة فقال :

وكل ما يقبل رب أو أل ... أو كم مضاف عليه تدخل
أو من للاستغراق أو كلا ... له فإنه منكر مثله
رب غلام قد ملكت أو كم ... وكل عبد ماله من درهم

أما ابن مالك فيبدأ تعريفه للنكرة بقوله :

٥٢ ـ نكرة قابل أل مؤثرا ... أو واقع موقع ما قد ذكرا

ابن معطى كان أكثر توفيقاً فى شمول التعريف وتحديد مفهوم الفكرة .

وتعرض ابن معطى لموضوعات لم يتطرق لها ابن مالك فى ألفيته ، فقد تطرق لقواعد الإملاء وأغفلها ابن مالك فى ألفيته ، كما تعرض فى باب الإدغام وفى آخر ألفيته إلى إدغام الحروف المتقاربة المخارج ، بينما أغفل هذا ابن مالك وتحدث عن إدغام الحروف المتماثلة فقط . أضف ذلك إلى باب الضرائر الشعرية والذى فرقه ابن مالك فوزعه على أبواب النحو فى الألفية كلها غير أن ابن مالك استدرك ما فاته فى النظم الصرفى فألف (لامية الأفعال) .

وعاب ابن خلدون من يعكف على كتب المتأخرين العارية عن الشواهد من كلام العرب وأشعارهم لأنهم يحسبون أنهم قد حصلوا على رتبة فى اللسان العربى وهم أبعد الناس عنه[٦٠] . كما نعى

---

[٦٠] مقدمة ابن خلدون ، ص٤٩٥ ، المطبعة الأزهرية ، ١٩٣٠م .

على النحويين من أهل المغرب وإفريقية لعدولهم عن البحث في الشواهد والتراكيب العربية وبذلك أصبحت كُتُبُهم كأنها من جملة قوانين المنطق العقلية أو الجدل وبعدت عن تحقيق غايتها[٦١] . وعالجت المنظومة النحوية هذا النقص بأن دمجت الشواهد القرآنية والشعرية مع القواعد فى النظم .

ولِتجنب الحشو نجد عند ابن جنى فى (اللمع) ، والمُجاشعى فى (المقدمة فى النحو) . عدم التعرض لبابى الاشتغال والتنازع ، كما نجد ابن جنى فى كتاب اللمع لا يعرض للاستغاثة ولا الاختصاص والتحذير والإغراء ولا لأسماء الأفعال ، ولا لأبنية الأسماء ، ولا لأبنية المشتقات والمصادر ، ولا لأبنية الأفعال وباقى بحوث الصرف ما عدا النسب والتصغير ، وقد حذا حَذوه فى ذلك المجاشعى وشاركهما ابن هشام فى (شذور الذهب) وزاد عليهما بأنه لم يعرض لبابى التصغير والنسب والإمالة ونونى التوكيد وألف القطع والوصل .

وفى مقابل ذلك أحس بعض النحويين بحاجة المتعلمين إلى مسائل معينة فلم تخل منها كتبهم حتى المختصرات فأفردوا لها أبواباً كالاستفهام ، وألفات القطع والوصل ، ومذ ومنذ ، وحتى ، والمنادى وملحقاته والعدد ، وكم ، وربَّ ، وما لا ينصرف ،

---

(٦١) المصدر السابق ، ص٤٩٥ .

والقَسم، ونونــى التوكيد ، والإمالـة[٦٢] ، بـل كـان بعضـهم حريصـاً على تناول ما يتصل بالهجاء والخط[٦٣] . وعلى سبيل المثـال نجـد ابن جنى يعقد بابـاً للاستفهام كـل أداة منهـا ويذكـر أمثلـة والإجابـة عليها بطريقة تعليمية خالصة[٦٤] .

كما عقد ابن جنى باباً لألفات القطـع وألفـات الوصـل[٦٥] مقتفيـاً فى ذلك أثر سيبويه[٦٦] ، والمبرد[٦٧] ، والزجـاجى[٦٨] ، وتبعـه فـى ذلك المجاشعى[٦٩] والزمخشرى . ونص الزمخشرى على أن إثبـات همزة الوصل فى الدرج لحن فاحش فقـال : "وإثبـات شـئ مـن هـذه الهمزات فى الدرج خروج عن كلام العرب ولحـن فـاحش فـلا تقل

---

[٦٢] انظـر : المفصـل للزمخشـرى ، والتسـهيل لابـن مـالك ، والجمـل للزجـاجى ، والمقرب لابن عصفور ، والفصول الخمسون لابـن معطـى ، والمقدمـة فـى النحـو للمجاشعى ، واللمع لابن جنى .

[٦٣] انظـر : المقدمـة فـى النحـو للمجاشـعى ، والفصـول الخمسـون لابـن معطـى ، والجمل للزجاجى .

[٦٤] ابن جنى ، اللمع فى العربية ، ص٣١٣ ـ ٣١٩ .

[٦٥] المصدر السابق ، ص٣٠٥ ـ ٣١٣ .

[٦٦] سيبويه ، الكتاب ، ج٢ ، ص٢٧١ : ٢٧٢ .

[٦٧] المبرد ، المقتضـب ، ج١ ، ص٢١٨ : ٢١٩ ، تحقيق عبد الخـالق عضيمـة ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، الطبعة الثانية .

[٦٨] الزجاجى ، الجمل فى النحو ، ص٢٥٧ ، تحقيق د/على توفيق الحمـد ، ط٢ ، مؤسسة الرسالة بيروت ، ١٩٨٥ .

[٦٩] المجاشعى ، المقدمة فى النحو ، ص٧٢ : ٧٣ ، تحقيق د/ حسن شاذلى فرهـود ، دار التراث بالقاهرة ١٩٨٠م .

الإسم والإنطلاق والإتسام والإستغفار ومن إبنُك ؟ وعن إسمك"[٧٠]. وتبعهم في هذا الصنيع ابن عصفور[٧١] . ولاشك في أن هذه الأبواب والمسائل كانت تستحق منهم العناية الخاصة لما فيها من دقة ولدورانها في الاستعمال وبجانب ما تقدم نجد بعض النحويين لا يعرض لتفصيلات وكأنه يكتفي بالأسس العامة مراعاة لمستوى الدارسين وعلى سبيل المثال نجد من النحويين من لم يشر إلى تقسيم علامات الإعراب أي علامات أصليه وعلامات فرعية تنوب عن الاصول وإلى الظاهر والإعراب المقدر ومن هؤلاء ابن جني في كتاب (اللمع) فيقول : "والمقصور الإعراب كله لا يدخله شئ من إعراب لأن في آخره ألفاً ، والألف لا تكون إلا ساكنة"[٧٢] ولا يذكر الإعراب على الألف . ويقول : "وعلم أن في الأسماء الآحاد ستة أسماء تكون في الرفع بالواو ، وفي النصب ، بالألف ، وفي الجر بالياء ، وهي : أبوك ، وأخوك ، وحموك ، وهنوك ، وفوك ، وذو مال"[٧٣] ولم يشرْ إلى أنها علامات فرعية نابت عن العلامات الأصلية . ويصنع هذا الصنيع في باب التثنية وباب جمع التذكير وباب جمع التأنيث وقد سبقه إلى هذا أبو جعفر النحاس في (التفاحة) ، والزبيدي في (الواضح) ، وتبعه المجاشعي في (المقدمة)

---

[٧٠] الزمخشري ، المفصل في علم العربية ، ص٣٥٦ ، دار الجيل بيروت ، لبنان.

[٧١] ابن عصفور ، المقرب ، ج٢ ، ص٣٨ ، تحقيق أحمد عبد الستار الجواري ، وعبدالله الجبوري ، مطبعة العاني ، بغداد ١٩٧٢م .

[٧٢] ابن جني ، اللمع ، ص٩٩ .

[٧٣] المصدر السابق ، ص١٠١ .

وابن معطى فى (الفصول الخمسون) وابن عصفور فى (المقرب) .
أما ابن هشام فإننا نجده فى قطر الندى لا يشير إلى علامات اصلية وفرعية ، ولكن عند شرحه للمتن يذكر التفصيلات لعلامات الإعراب الفرعية[٧٤] .

كما يكتفى ابن جنى فى باب الحال بالحديث عن الحال المفردة ، ولا يذكر الحال جملة وشبه جملة ، ولا يقسم الحال إلى مؤسسة ومؤكدة ومتداخلة ومقدرة ...إلخ ، ولكنه يتناول العامل فى الحال إذا كان متصرفاً أو غير متصرف وما يترتب على ذلك من جواز تقديم الحال على العامل[٧٥] . وعندما يعرض لباب التمييز يكتفى بتعريفه ويبين أن أكثر ما يأتى بعد الأعداد والمقادير ، والمقادير ممسوح ومكيل وموزون ويمثل لكل منها ثم يقول : "من المنصوب على التمييز قولك طبت به نفساً ..." ,اخيراً يقرر أن جميع التمييز من معنى "من"[٧٦] . وعندما يعرض للوصف أى النعت لا يعرض للنعت بالجملة ولا شبه الجملة وما يتعلق بذلك من شروط فى المنعوت والجملة ، بل يكتفى بالحديث عن النعت المفرد بما يدل على معنى فى الموصوف أو شئ من سببه وبين أن المعرفة تُنعت بالمعرفة ، والنكرة تُنعت بالنكرة . وقد سبق الزجاجى ابن جنى فى هذا الصنيع إذ لا يعرض للنعت بالجملة ولا بشبه الجملة ، ولا يعقد

---

(٧٤) ابن هشام ، شرح قطر الندى (بهامش حاشية السجاعى على شرح القطر) ، ص١٨ - ٢٤ ، المطبعة العثمانية بالقاهرة ١٣٢٢هـ .

(٧٥) ابن جنى ، اللمع ، ص١٤٥ وما بعدها .

(٧٦) المصدر السابق ، ص١٤٧ .

باباً للحال مستقلاً بل يعرض له فى موضعين[٧٧] الأول فى باب ما تتعدى إليه الأفعال المتعدية وغير المتعدية ، والثانى فى باب أقسام المفعولين وبعده من قبيل المفعول فيه ولم يعرض لمجئ الحال جملة ولا شبه جملة ، وهكذا صنعَ الزُبيدى (٣٧٩هـ) فى كتابه "الواضح فى علم العربية"[٧٨] .

وقد فهم بعض النحويين أن كثرة الشواهد مع إعرابها وتوضيح غريبها تؤدى إلى تدريب الدارسين ومن هؤلاء ابن هشام إذ يقول فى مقدمة شرح شذور الذهب : "والتزمت فيه أننى كلما مررت ببيت من شواهد الأصل ذكرت إعرابه ، وكلما أتيت على لفظ مستغرب أردفته بما يزيل استغرابه وكلما انتهيت من مسألة ختمتها بآية تتعلق بها من أى التنزيل ، وأتبعتها بما تحتاج إليه من إعراب وتفسير وتأويل ، وقصدى بذلك تدريب الطالب وتعريفه السلوك إلى أمثال المطالب"[٧٩] ، وهذا ما تُقدمه المنظومة النحوية العربية .

لقد أدرك النحويون دور التدريب والتطبيق وقدموا نماذج محدودة كانت تحتاج إلى تطوير وفهم أعمق لدورها فى اكتساب الحس اللغوى ، ولكن يشفع لهم أنهم أدركوا الجانب الأهم فى مجال التدريب والتطبيق بمفهوم أوسع ، وهذا الجَهد هو ما قام به شراح

---

(٧٧) الزجاجى ، الجمل فى النحو ، ص٣٢ ـ ٣٥ ، ص٣١٦ .

(٧٨) الزبيدى ، الواضح فى علم العربية ، ص٢٤ ، ص٥٧ ، تحقيق د/أمين على السيد ، دار المعارف ، ١٩٧٥م .

(٧٩) ابن هشام ، شرح شذور الذهب ، ص١١ ، تحقيق محمد محيى الدين ، ط١٥ ، ١٩٧٨م .

الألفية وصانعو الحواشي والتقارير وصنعه قبلهم أيضاً ابن مالك نفسه ولكن فى أعماله غير المنظومة فقد استوفى شُرَّاح الألفية الشروط اللازمة فى المؤَلف النحْوى من حيث فك عُقد نَظْمِ البيتِ وفصل القواعد عن الشواهد والأمثلة إلى جانب إيضاح ما بالشواهد والأمثلة من وجوه الاستشهاد ناهينا ببساطة اللغة التى تعرض لها القاعدة .

ولنحاة الأندلس والمغرب جهود محمودة وآثارلها قيمتها فى اللغة ، وتتمثل جهودهم المخمودة هذه فى صور شتى منها :

- وضع مختصرات للمطولات من كتب اللغة والنحو ، كمختصر الزُبَيْدي (٣٧٩هـ) لكتاب العين الذى وضعه الخليل بن أحمد ، وكالمختصر الذى وضعه أبو بكر خطاب القرطبى لكتاب (الزاهر) لابن الأنبارى .

- وتأليف كتب مستقلة فى النحو والصرف مثل : كتاب (الواضح فى نحو العربية) ، وكتاب (الأبنية) فى الصرف للزُبَيدى، وكتاب (الممتع فى الصرف) لابن عصفور ، وكتاب (تصاريف الأفعال) لمحمد بن القوطية ووضع شروح لبعض كتب النحو مثل : (شرح الأعلم على كتاب الجمل) للزجاجى ، وشرح ابن معط على ذات الكتاب ، والشرح الذى وضعه كل من الشلوبين وابن عصفور على "المقدمة الجزولية" ، وشرح أبيات سيبويه وبعض دواوين الشعراء . وجمع شعر شعراء الأندلس أو تصنيف مختارات من أشعارهم .

ووضع تعليقات على كتب السابقين من علماء النحو ، كتعليقات الشلوبين على كتاب سيبويه .

ـ ونظم قواعد النحو فى قصائد وأراجيز طويلة تيسيراً للدراسين على استيعابها وتذكرها عند الاقتضاء لسهولة حفظ الشعر ، ومن ذلك المنظومات النحوية كألفية ابن معط ، وألفية ابن مالك ، وكذلك قصيدته المسماة (بلامية الأفعال) .

والملاحظ على الكتب التعليمية وما يشبهها من المؤلفات النحوية أنها لم تقترب من أصول التفكير النحوى أو النظرية النحوية كما وضعها نحاة البصرة ، وإنما اتجهت إلى التطبيق والتعليم والاختصار فى إطار هذه النظرية . والمحاولة الوحيدة التى تتصل بمبدأ التيسير والإصلاح من ناحية ومناقشة الأصول والمبادئ النظرية التى وضعها نحاة البصرة من ناحية أخرى ونقدها وفق أصول نظرية جديدة كانت محاولة ابن مضاء القرطبى (ت ٥٩٢هـ) فى كتابه "الرد على النحاة"[٨٠] . وقد صدّر ابن مالك ألفيته بأنها (فائقة ألفية ابن معطى) وهذا أعتراف بالفضل من ابن مالك بأن ابن معطٍ سبقه فى النظم على هذا المنوال وعنّ لى أن البيئة التى نشأ فيها ابن مالك وهى (جيان) لها أثر فى أن ينحو ابن مالك هذا المنحى الجديد فهذا المنحى يعدُ لوناً من ألوان التجديد فى التأليف النحوى وبيئة المغرب والأندلس عُرفت بثورتها على المشرق فى فقهه ثم نحوه على يد ابن حزم الأندلسى وابن مُضاء القرطبى

---

[٨٠] دكتور أحمد مختار عمر ، البحث اللغوى عند العرب ، ص١٢٠ ـ ١٢٣ ، توزيع دار المعارف بمصر ، ١٩٧١م .

وطبيعياً أن يتأثر أبناء البيئة بهذا الاتجاه الوليد خصوصاً فى مرحلة تلمذتهم على شيوخهم فى تلك البيئة ولما كانت تجربة ابن معطٍ فى النَظْم سابقة على تجربة ابن مالك كان لابد من البحث فى نشأة ابن معطٍ وتلمذته وبيئته .

ولد ابن معط بالمغرب سنة (٥٦٤هـ) سنة أربع وستين وخمسمائة للهجرة ، ولكن يمكن القول أنه قد ولد (بظاهر بجاية) حيث كانت تسكن قبيلته (وبجاية)[٨١] : مدينة على ساحل البحر بين إفريقيا والمغرب ، ويدعم هذا الرأى ويقويه أنه قد تتلمذَ على العالم الجزولى الذى أقام بمدينة بجاية حيث عمل هناك ، والتف الناس حوله ينهلون من علمه[٨٢] .

عاش ابن معطٍ صباه فى المغرب حيث ولد وتلقى العلم وعاش فى فترة كانت دولة الموحدين تبذلُ قصارى جهدها فى توحيد دولة المغرب ، وحيث الدعوةِ الجديدةِ إلى تجديد المفاهيم الإسلامية ، وإكساب المسلمين روحَ القوةِ والمنعة فى الدفاع عن أنفسهم وعن أرضهم ، كى تكون لهم دولة مستقلة ، وازدهرت تلك الفترة بالأدب والفكر والثقافة ، فازدهرت علوم العربية من نحو ولغة وعروض وبيان وتاريخ وسير .

وشهدت دولة الموحدين علماءً أفذاذاً ، وعباقرة كباراً فى علوم العربية : كالجزولى والسهيلى والشلوبين وابن خروف وابن عصفور وابن مُضاء وابن مالك وغيرهم .

---

[٨١] ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، ج١ ، ص٤٩٥ ، دار صادر بيروت ١٩٥٥ .

[٨٢] ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص١٥٧ ، ١٣١٠هـ .

وأصبح كل عـالم مـن هؤلاء مدرسـة قائمـة بذاتهـا ، فانتشـرت المدارس النحوية هنا وهنـاك . فهذه مدرسـة فـاس ، وهـذه مدرسـة طنجة ، وهذه مدرسة أشبيلية وغيرها كثير .

وأصبح الطلاب ينتقلون من مدرسـة إلـى أخـرى ، مستفسـرين عن مسائل كثيرة لمعرفة ما يقوله العلماء عنها ، وانتشر علم النحو، وأصبح لازماً لكل شخص . والنحو موضوعاته كثيرة ، وأبوابه متعددة .

نشأت فكرة نظم المسائل اللغوية والنحوية ، فأنشـأ العلامـة ابـن المناصف أرجوزته المسماة (بالمذهبيـة فـى الحلـى والشـيات) حيث نظمها بمراكش سنة (٦٢٠هـ) ثم قام ابن معطٍ فى هذا المجال فنظـم ألفيته المعروفة فى النحو ، كما نظم فى العروض والقراءات .

فى هذا الجو العلمى نشأ ابن معط ، وخطر على فكرة أن يرحل إلى المشرق ، فقد أُعجب المغرب العربى بالمشرق العربـى إعجابـاً حتى أنّ علماء المغرب قد قلدوا المشارقة فى كل شئ . وجـاء إلـى دمشق حيث الدولة الأيوبية التى اهتمت بالأدب والأدباء[٨٣] .

أما تاريخ وِفَادَتِه على دمشق فلم يُشرْ إليها أحد ممـن أرخ لـه ، وأستطيع القول أنه لربما قدم إلى دمشق فى حدود سنة ٥٩٠هـ .

وأخرج لنا هذا العصر علماءً كثراً منهم :

ابـن بـرى[٨٤] المصـرى المتوفـى سـنة (٥٨٢هـ) ، عثمـان بـن عيسـى البليطـى المتوفـى سـنة (٥٩٩هـ) ، أبـو اليمـن الكنـدى[٨٥]

---

(٨٣) أحمد أحمد بدوى ، الحياة العقلية فـى عصـر الحـروب الصليبيـة ، ص١٧٣ـ ١٧٤ .

(٨٤) السيوطى ، بغية الوعاة ، ج٢ ، ص٣٤ ، السعادة ، ١٣٨٠هـ .

المتوفى سنة ٦١٣هـ ،سليمان ابن بنين الرقيقى المتوفى سنة (٦١٤)، وابن الرماح على بن الصمد[٨٦] المتوفى سنة (٦٣٣هـ) ، وابن يعيش المتوفى سنة (٦٤٣هـ) ، وعلم الدين السخاوى[٨٧] المتوفى سنة (٦٤٣هـ) ، وابن الحاجب[٨٨] المتوفى سنة (٦٤٦هـ) ، وابن الخباز[٨٩] المتوفى سنة (٦٣٧هـ) ، وبين هؤلاء نشأ ابن معطٍ.

ورحلات العلماء فى الغالب تكون لسببين : إما طلباً للرزق وإيجاد لقمة العيش ، وإما طلباً للعلم . وكأنى برحلات ابن معطٍ هنا من النوع الأول .

إذ لو كان طلباً للعلم . فهو متوفر فى بلده حيثُ أتقن علوم عصره حتى وصل إلى رتبة عالية ، فأصبح عالماً مبدعاً . وجو علمى كهذا ، وعالم يحب العلم ويعشقه لا يتركه إلى سواه خاصة وأنه عندما وصل إلى دمشق جلس للتعليم حيث التف حوله الطلاب ينهلون من علمه يدرس لهم الأدب والنحو وعلوم اللغة .

ولم تكن المنظومة النحوية وسيلة ناجعة خصوصاً فى علم النحو فالمنظومة لم تثبت كفاءتها بقدر ما أثبتت كفاءة الناظم وقدرته على الأداء وكان لابد للناظم الواحد من التدرج فى مصنفاته بحيث يؤلف مصنفاً منظوماً ثم يختصره ثم يَبْسُط النَظْم فى لغة سهلة واضحة ثم

---

[٨٥] المصدر السابق ، ج١ ، ص٥٧٠ .

[٨٦] المصدر السابق ، ج٢ ، ص١٧٥ .

[٨٧] المصدر السابق ، ج٢ ، ص١٩٢ .

[٨٨] المصدر السابق ، ج٢ ، ص١٣٤ .

[٨٩] المصدر السابق ، ج١ ، ص٣٠٤ .

يشرح المبسوط فيستوفى العناصر اللازمة لقبول مصنفه لدى تلامذته من حيث الإيضاح ووفرة الشواهد والأمثلة .

لقد أراد ابن مالك[٩٠] بعد أن نظم (الكافية) و(الخلاصة) أن يؤلف كتاباً مختصراً يستوفى أصول النحو ، ويستولى على أبوابه وفصوله ، فألف كتابه الموسوم "بتسهيل الفوائد وتكميل المقاصد"[٩١] وجعله ثمانين باباً ضمنت مائتين وأحد عشر فصلاً استوعب مسائل النحو والصرف ومخارج الحروف والهجاء ، وجعل ابن مالك رؤوس المسائل الكبرى أبواباً ، وفروعها فصولاً .

وقد بدأ بن مالك كتابه هذا بالحديث عن معنى الكلمة والكلام وإعراب الصحيح والمعتل وإعراب المثنى . والمجموع وكيفية التثنية وجمعى التصحيح ، والمعرفة والنكرة وأنواع المعرفة واستغرق فى ذلك أحد عشر باباً . ثم تناول فى ثمانية أبواب العمد أى المرفوعات فعرض لما يلى :

المبتدأ والخبر ، والأفعال الرافعة الاسم الناصبة الخبر ، وأفعال المقاربة والأحرف الناصبة الاسم الرافعة الخبر ، والأفعال الناصبة المبتدأ أو الخبر ، والفاعل ونائب الفاعل .

ثم تناول فى اثنى عشر باباً الفضلات ، وهى المنصوبات فعرض لما يلى :

---

[٩٠] المصدر السابق ، ج١ ، ص١٣٠ ـ ١٣٧ .

[٩١] ابن مالك : كتاب تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد ، حققه وقدم له محمد كامل بركات ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة ، ١٩٦٨م .

الاشتغال ، تعدى الفعل ولزومه والتنازع والمفعول المطلق ، والمفعول له ، والمفعول فيه ، والمفعول معه ، والمستثنى ، والحال، التمييز وما يتصل به . ثم أردف ذلك بسبعة أبواب تناول فيها :

نعم وبئس ، وحبذا ، والتعجب ، وأفعل التفضيل ، وإعمال اسم الفاعل ، وإعمال الصفة المشبهة ، وإعمال المصدر .

ثم تناول فى ثلاث أبواب المجرورات فعرض لما يلى :

حروف الجر ، القسم ، الإضافة .

ثم خصص ستة أبواب تناول فيها التوابع من توكيد ، ونعت ، وعطف ، وبيان ، وبدل ، وعطف نسق .

ثم عقد ستة أبواب تناول فيها النداء ، والاستغاثة ، والندبة ، وترخيم المنادى ، والاختصاص ، والتحذير والإغراء وما يلحق بهما .

ثم عرض أبواباً منها : أبنية الأفعال ومعانيها ، وهمزة الوصل، ومصادر الفعل الثلاثى ، ومصادر الفعل غير الثلاثى وأسماء الأفعال والأصوات ، نونى التوكيد ، ومنع الصرف ، وإعراب الفعل وعوامله ، وعوامل الجزم ، والحكاية ، والإخبار ، والتذكير والتأنيث ، وألفى التأنيث ، والمقصور والممدود ، والتقاء الساكنين، والنسب ، وجمع التكسير ، والتصغير ، والتعريف ، ومخارج الحروف ، والإمالة ، والوقف ، والهجاء .

وقد اشتمل كل باب من هذه الأبواب على ما يلائمه من فصول تناول فيها المصنف مسائل الباب الجزئية . وابن مالك تناول

المرفوعات فى إطار العُمَدِ ونص على أن اسم إن ، وخبر كان من العمد الملحقة بالفضلات ، فهما فى الأصل أى قبل دخول النواسخ كانا مبتدأ وخبراً مرفوعين .

وقد كان ابن مالك شديد الحرص على عرض أكبر قدر من علمه بالنحو فى هذا الكتاب فيذكر فى إيجاز بالغ آراء النحويين السابقين دون تعليق عليها أو مناقشتها ولكنه لا يجد متسعاً للأمثلة وذكر الشواهد إلا ما نَدُر .

عرض الدكتور "محمد إبراهيم عباده" للنحو التعليمى فى التراث العربى فى مؤلف خاص ومن بين من عرض لهم ابن مالك لكنه لم يَعرض للمنظومة النحوية عرضاً مفصلاً ، واكتفى بعرض تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد للمؤلف ، ويبدو أن ذلك راجع لمنهج المنظومة فى تشقيق الأبواب وتفريعها وفقاً للمعمولات .

ولو كان أسلوب نظم القواعد مجدياً لما لجأ ابن هشام إلى الاختصار خصوصاً أنه فى مرحلة متأخرة بعد ابن مالك .

لقد سلك ابن هشام هذا المسلك أيضاً أعنى التدرج فى التأليف فمال إلى تأليف كتاب مختصر أسماه (قطر الندى وبل الصدى) قدمه للمبتدئين حتى إذا استظهره - والاستظهار كان طريقة التعلم المتبعة - قدم لهم شرحاً عمد فيه إلى تفصيل ما أجمل فى كتابه المختصر ثم أعد مؤلفاً آخر موجزاً أيضاً أسماه (شذور الذهب) ثم قدم له شرحاً ، ويعد هذا الكتاب مناسباً لمستوى أعلى من مستوى الكتاب السابق ثم ألف كتابه المشهور "مغنى اللبيب" وهو موسوعة فى تفسير المفردات وذكر أحكامها ، وتفسير الجمل ، وما يتردد

بين المفردات والجمل ، وذكر الأحكام التى يُقبحُ بـالمعرب جهلهـا ، فكل كتاب من هذه الكتب ألفـه ابـن هشـام ليقدمـه إلـى مسـتوى مـن مستويات ، وليـس مـن شـك فـى أن المنظومـة النحويـة كـان هدفهـا التيسير وإن لم تحقق ذلك لكن هذا الهدف كان يعتمد على الحفظ فى الذاكرة فما لم يفهمـه الـدارس يمكـن أن يحفظـه أولاً ثـم يفهمـه فـى مرحلة تالية أو أن يكون لهذه نوتة جيب أو مفكرة .

النّظم والتيسير :

كـان الشـعر ولا يـزال ديـوان العـرب يجمـع مفــاخرهم وينَظِـم عواطفهم ومشاعرهم ، والشعر يتميز علـى سـائر الأجنـاس الأدبيـة بموسيقاه ، وتلك الموسيقى التــى تَميز بهـا هـى التـى جعلتـه أنسـب القوالب التعبيرية لصب العاطفة الإنسانية فيه ، ولإظهارها بما يُثـيرَ ويؤثُر فى النفس ، وبما يُشبع ويُمتع الروح وتلك الموسيقى هى التى جعلت الشعر أساس قياداً للحفظ ، وأيسـر وأشـيع فـى النـاس وعلـى الزمان ، فليس كالشعر ما يظل حتـى قديمـة الضـارب بجذوره فـى عصور التاريخ محفوظاً على صفحات الصدور تـردده الألسـنة فـى شتى المناسبات مادحـة أو راثيـة أو مفتخـرة أو واعظـة وليـس مـن الناس كبيرهم وصغيرهم ، بل متعلمهم وجاهلهم مـن لـم يحفظ مـن الشعر ما يستدل به على موقف من مواقف الحياة أو يتغنـى بـه فـى ساعة من الساعات .

والموسيقى التى تضمنها شعرنا العربى غزيرة ومتنوعة[٩٢] . غير أن المنظومات العلمية ومنها المنظومة النحوية اتخذت من بحرى الرجز والسريع وسيلة لنظم العلوم لما لهما من إمكانات تتسع لنظم العلوم وإن كان السيوطى فى منظومته النحوية المعروفة (بالدرة الفريدة) قد نظم فيها أبياتاً قليلة على بحرى البسيط والهزج خصوصاً عند صياغة أمثلة الممنوع من الصرف والملاحظ على الشعر التعليمى كله أنه كان من العوامل القوية التى حررت الشعر فى القرن الثانى من نظام القصيدة التقليدية وخاصة فى القوافى . وذلك لأن طبيعة الشعر التعليمى وَصَوْغِه لمعارف وعلوم شتى ، ألزمت الشعراء بالاتجاه إلى المزدوج وغيره من ضروب النظم ، وإسحق بن حنين له قصيدة تعليمية فى تاريخ الطب (من الطويل) يقول فيها :

أنا ابن الذين استودع الطب فيهم   وسمى به طفل وكهل ويافع
يبصـرنى آرسطاليس بارعـاً   يقوم منى منطق لا يدافع
وبقـراط فى تفضيل ما أثبت   الألى لنا الضر والإسقام طب مضارع
ومازال جالينوس يشفى صدورنا   لما اختلفت فيه علينا الطبائع
ويحيى بن ماسويه واهرن قبله   لهم كتب للناس فيها منافع[٩٣].

---

[٩٢] د/ محمود على السمان ، فن الموسيقى فى الشعر العربى ، ج١ ، ص٧ ، الشركة المصرية للطباعة والنشر ، ١٩٧٨م .

[٩٣] لويس شيخو ، شعراء النصرانية بعد الإسلام ، ص٢٤٩ ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ، ١٩٢٦م .

إن الشعر التعليمي كان اتجاهاً جديداً من اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، دعا إلى وجوده انتشار التعليم وامتزاج الثقافات زدخول علوم ومعارف أجنبية إلى الفكر العربى ، وسواء أكانت نشأته عربية خالصة أم بتأثير هندى أو يونانى ، فهو ليس فناً مؤثراً ولا شعراً خالداً وليس له من الشعر إلا اسمه ، أو كما عبر عنه د/ طه حسين قائلاً : (هو فن ليس له فى نفس قيمة أدبية ولا سيما فى العصور المتحضرة كعصر العباسيين ، وإنما قيمته فى تلك العصور التى لاحظ لها من علم ولا من حضارة ، والتى تنتشر فيها الكتابة ولا يسهل فيها تسجيل العلم وتدوينه ، ففى مثل هذه العصور ينفع الشعر التعليمى ويفيد لأنه أيسر حفظاً من النثر) [٩٤] .

فالوزن والقافية ركنان أساسيان من أركان القصيدة العربية ، أو قاعدتان لا يمكن أن يقوم بناؤها إلا عليهما[٩٥] .

وهما حجر الأساس فى موسيقاها الخارجية التى يقيسها العروض وحده[٩٦] . والوزن أعظم أركان حد الشعر ، وأولاها به

---

[٩٤] د/ طه حسين ، حديث الأربعاء ، ج٢ ، ص٢٢١ ، دار المعارف مصر ، ١٩٥٨م .

[٩٥] يوسف خليفة ، مقدمة ديوان نداء القمم ، ص١٥ ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٥٦م .

[٩٦] د/ شوقى ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربى ، ص٧٨ ـ ط٣ ، بيروت ، ١٩٥٦م .

خصوصية وهو مشتمل على القافية وجالب لها ضرورة[٩٧] . وللوزن إيقاع يُطرب الفهم لصوابه ، وما يَردُ عليه من حسن تركيبه واعتدال أجزائه[٩٨] .

إن التزام نقاد العرب القدامى بالوزن والقافية والتمسك بهما ركنين من أركان القصيدة أمر له نظيره فى النقد الأجنبى الحديث . فاللغات الأوربية الحديثة لم تُعدْ تكتفى بالموسيقى الداخلية للقصيدة إنما تضيف إليها ما تولده القافية ـ على اختلافها ـ من موسيقى[٩٩].

وفى نقدنا الحديث ، يقف طه حسين فى مقدمة النقاد القائلين بضرورة الوزن فى الشعر فى مواطن متعددة من تواليفه . يقول : "الركن الثالث الذى لابد للكلام أن يستوفيه ليكون شعراً هو الوزن"[١٠٠] ويقول : "وإذن فنحن نستطيع أن نُعرّف الشعر آمنين بأنه الكلام المقيد بالوزن والقافية والذى يقصد به الجمال الفنى"[١٠١]. ويتبنى د/ محمد النويهى آراء (ت . س . اليوت) فى

---

[٩٧] ابن رشيق القيروانى ، العمدة ، ج١ ، ص١٣٤ ، تحقيق محيى الدين عبد الحميد ، ط٣ ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٦٣م .

[٩٨] ابن طباطبا العلوى ، عيار الشعر ، ص١٥ ، تحقيق د/طه الحاجرى ، ود/زغلول سلام ، شركة فن الطباعة ، القاهرة ١٩٥٦ .

[٩٩] محمد مندور ، الأدب وفنونه ، ص٣٤ ، معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ١٩٦٣م .

[١٠٠] د / طه حسين وآخرون ، التوجيه الأدبى ، ص١٤٣ ، مطابع دار الكاتب العربى ، القاهرة ١٩٥٤م .

[١٠١] د / طه حسين فى الأدب الجاهلى ، ص٣١٢ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٤م .

الوزن ، التى تقوم على تأكيد أهمية الوزن وضرورته فى الشعر ، وترفض التحرر منه ، لأن الشاعر الحق لا يسعى إلى التحرر من الوزن . والوزن ليس شيئاً زائداً يمكن الاستغناء عنه ، وليس مجرد شكل خارجي يُكسِب الشعر زينة ورونقاً ، بل إنه يختص بالشعر الذى يختص بالعاطفة الإنسانية إذا كانت فى حالة زائدة الشدة ، وهو يتناول أقوى العواطف وأكبرها حدة وأكثرها اهتزازاً ، والاهتزاز هو السمة الأولى للعاطفة والوزن معاً[١٠٢] . وهذا ما يجعل الدارس يتقبل المعلومات المنظومة وإن صعبت على حين أنه لا يتقبلها مبسوطة ، ولعل هذا هو الوتر الذى عَزف عليه ناظمو العلوم ومن كتبوا فى الشعر التعليمى على مر عصوره .

وكان المعيار الأول للعلم مقدار ما حُفظ منه ، وكان العلماء يتباهون بمقدار ما حَفظوا ، ويمتدحون إذا أملوا من حوافظهم وتذكر كتب التراجم أن أبا بكر الأنبارى (ت ٣٢٨هـ) كان يحفظ ثلاثة عشر صندوقاً من الكتب كما كان يحفظ مائة وعشرين تفسيراً من تفاسير القرآن بأسانيدها[١٠٣] . كما تذكر الروايات أن أبا عمر الزاهد أملى من حفظه ثلاثمائة ألف ورقة لغةً[١٠٤] ، فطريقة الحفظ هي التى كانت تسود الموقف التعليمى فى المراحل المختلفة فعلى المتعلم أن يحفظ ما يلقى إليه ويستظهر ما يملى عليه حتى يصل

---

[١٠٢] د / محمد النويهى ، قضية الشعر الجديد ، ص٢٨ ـ ٣٠ ، ص٣٧ أيضاً ، معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٦٤م .

[١٠٣] ابن الأنبارى ، نزهة الألباء ، ص٣٦٧ .

[١٠٤] المصدر السابق ، ص٣٧٨ .

إلى الغاية ثم يستقل عن شيخه وقلما يعـترض المتعلم المتلقـى علـى معلمه وإن اعترض فسنده ما يحفظ[١٠٥] .

واحتاج العلماء بسبب فساد الألسنة إلى تحبيب علم النحو الـذى نشأ فى القرن الثانى واستقرت أوضاعه إلى الناشئة ، ولهذا نجد لهم شعراً تعليمياً فى مدحه ، ربما كان هو الأساس فيما بعد لألفيـة ابـن مالك وغيرها من النظم التعليمى فى النحو . ومن ذلـك الشـعر قـول إسحق بن خلف البهرانى .

النحو يبسط من لسان الألكن والمرء تكرمه إذا لم يلحن
وإذا طلبت من العلوم أجلها فأجلها منها مُقيم الألسن[١٠٦] .

وللكسائى قصيدة فى هذا المعنى أيضاً (من البحر المديـد) يقـول فيها :

إنما النحو قياس يتبع وبـــه فى كل أمــر ينتفع
فإذا ما أبصر النحو فتى مر فى المنطلق مراً فاتسـع
فاتقاه كل من جالسه من جليس ناطق أو مستمع
وإذا لم يبصر النحو فتى هاب أن ينطق جبناً فانقطع
فتراه ينصب الرفع وما كان من خفض ومن نصب رفع
يقرأ القرآن لا يعرف ما حرف الإعراب فيه وصـنع
والذى يعرفه يقرؤه فإذا ما شك فى حرف رجع
ناظراً فيه وفى إعرابه فإذا ما عرف اللحن صـدع
فهما فيه سواء عندكم ليست الألسن فينا كالبـدع

---

[١٠٥] المصدر السابق ، ص١٧٦ : ١٧٧ .

[١٠٦] المبرد ، الكامل ، ص٢٣٩ ، نشر وليم رايت ، ط ، ليبزج ، ١٨٦٤م .

كم وضيع رفع النحو وكم من شريف قد رأيناه وضع[١٠٧].

لم يحاول النحويون العدول عن الطريقة التى تلقوها من سيبويه، فظلت كتب النحو تُعد لتحفظ وتستظهر مع أن الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) بين ما لطريقة الحفظ والاستظهار وما عليها ، ونادى بأن يُتبع فى التعليم الاستنباط والتفكير مع عدم إهمال الحفظ فقط :

"وكرهت الحكماء والرؤساء وأصحاب الاستنباط والتفكير جودة الحفظ لإمكان الاتكال عليه ، وإغفال العقل من التمييز حتى قالوا : الحفظ عَذْقُ الذهن"[١٠٨] . ولأن مستعمل الحفظ لا يكون إلا مُقَلِداً ، والاستنباط هو الذى يفضى بصاحبه إلى برد اليقين ، وعز الثقة .

والقضية الصحيحة والحكم المحدود : أنه متى أدام الحفظ أضر ذلك بالاستنباط ، ومتى أهمل النظر لم تسرع إليه المعانى ، ومتى أهمل الحفظ لم تعلقْ بقلبه ، وقل مكثها فى صدرها"[١٠٩] .

ولو أن النحويين أفادوا من دعوة الجاحظ تلك لبدت ملامح التغيير فى مصنفاتهم . لكن ميل ابن مالك إلى نهج نظم القواعد بأمثلتها جاء اتباعاً لما ورد عند ابن الحاجب والزمخشرى وسيبويه غير أن الفرق بين كل نحوى وأخر هو اختيار محور للتصنيف يختلف عن المحور الذى اختاره غيره .

---

(١٠٧) حافظ البغدادى ، تاريخ بغداد ، ج١١ ، ص٤١٢ ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٣١م .

(١٠٨) الجاحظ "رسائل الجاحظ" ج٣ ، ص٢٩ ، اختيار عبدالله حسان ، الخانجى ، مصر ١٩٧٩م .

(١٠٩) المصدر السابق ، ج٣ ، ص٢٩ .

غير أن هناك ميزة امتازت بها منظومة ابن معطٍ ، وهي إثارة اهتمام الطلاب وجلب انتباههم ، وإثارة روح المنافسة بينهم بإثارة مسائل تحتاج إلى سرعة الخاطر وإلى الفطنة . وكأنه تربوى يغير من أسلوبه بين الفينة والفينة ليحصل على المزيد من اهتمام الطلاب بإثارة مثل هذه المسائل فيقول :

مسألة بها امتحان النشأة أعطى بالمعطى به ألف مائة

وكسى المكسور فرداجبة ونقص الموزون ألفا حبة

والحقيقة أن استعمال النظم وسيلة للتيسير عند كل من ابن مالك وابن معطٍ هو طريقة تربوية تشبه الأساليب التربوية الحديثة لأن هذه التجربة نظرت إلى ماسبقها من تجارب فى التيسير وهى تأليف المختصرات وتَعَدُد محاور التصنيف والتدرج فى التأليف عند المؤلف الواحد كما هو الحال عند ابن جنى وابن مالك وابن هشام وكذلك شرح المؤلف لمؤلفاته وشرح مؤلفات غيره وكذا التخفف من قضايا الأصول وكذا التعديل فى ترتيب أبواب النحو وفصوله ثم الميل إلى تأليف كتب متخصصة فى النحو وحده أو فى الصرف وحده أو فى الأدوات والحروف أو فى ظواهر صرفية أو أخرى نحوية يستقل بها مؤلف واحد والمنظومة النحوية تعد وسيلة من وسائل التيسير التى مر بها النحو العربى فى تاريخه غير أن هذه المنظومة صَبَغت النحو بصبغة معيارية .

مجمع الاتجاهات ومبعث النقود :

ولابن مالك شخصيته المستقلة فى الدراسات النحوية فهو لا ينتمي إلى اتجاه معين ، فلا هو بصرى ، ولا هو كوفى ، ولا هو بغدادى ، وإنما همه فى هذه الدراسات أن يضع المسألة النحوية على بساط البحث ويوجه إليها كل ما يملك من رصيد ثقافى ليضعها فى ميزانها الصحيح ، فإذا استبان له وجه الحق فيها أخذ بها بغض النظر عن مصدرها ومنبعها ، ومن هنا وافق ابن مالك البصريين فى كثير من المسائل التي سلم لهم بها . والنحو البصرى عرف طريقه للأندلس عن طريق محمد بن يحيى الرباحى الجيانى (ت ٣٥٣هـ) فقد أدخل كتاب سيبويه إلى الأندلس ، إذ إنه رحل إلى المشرق فلقى بمصر النحوى المشهور ابا جعفر النحاس وحمل عنه كتاب سيبويه رواية ، وقد قال عنه أبو بكر الزبيدى : "ولم يكن عند مؤدبى العربية ولا عند غيرهم من عنى بالنحو كبير علم (بالعربية) حتى ورد محمد ابن يحيى عليهم ، وذلك أن المؤدبين كانوا يعانون إقامة الصناعة فى تلقين تلاميذهم العوامل وماشاكلها ، وتقريب المعانى لهم فى ذلك ، ولم يأخذوا أنفسهم بعلم دقائق العربية وغوامضها والاعتلال لمسائلها ، ثم كانوا لا ينظرون فى إمالة ولا إدغام ولا تصريف ولا أبنية ، ولا يجيبون فى شئ منها حتى نهج لهم للسبيل النظر ، وأعلمهم بما عليه أهل هذا الشأن فى الشرق ، من استقصاء الفن بوجوهه واستيفائه على حدوده ، وإنهم بذلك استحقوا اسم الرياسة" . ويقول القفطى عن محمد بن يحيى إنه لما

ورد قرطبة أخذ فى التدقيق والاستنباط والاعتراض والجواب وطرد الفروع إلى الأصول ، فاستفاد منه المعلمون طريقه ، واعتمدوا ما سنه من ذلك .

ولعله من المفيد الإشارة إلى أنه كان يعاصر ابن يحيى فى قرطبة أبو على القالى البغدادى (ت ٣٥٦هـ) الذى نزل الأندلس (سنة ٣٣٠هـ) فى عهد عبد الرحمن الناصر ، وقد كان له دور مهم فى الحياة اللغوية والأدبية ، خاصة حين حمل معه سيبويه بعد أخذه عن عبد الله بن جعفر بن درستويه عن المبرد .

ويعدّ ابن سيده (ت ٤٤٨هـ) واحداً من أعلام الحياة اللغوية فى الأندلس ، ولم يكن فى زمانه أعلم منه بالنحو واللغة والأشعار وأيام العرب وما يتعلق بها . ولابن سيده عدة أعمال علمية يأتى على رأسها موسوعته (المخصص)التى تقع فى سبعة عشر جزءً والتى احتوت على أبحاث لغوية كثيرة من بينها تنظيمه لشرح السيرافى لكتاب سيبويه داخلها .

وقد استعان ابن سيده فى حشو معجمه (المحكم والمحيط الأعظم) بأعمال أبى على الفارسى وتلميذه أبى الفتح عثمان بن جنى وهما مؤسسا "المدرسة البغدادية" ، وفى ذلك الدلالة البينة على أننا لا نصل إلى ابن سيده حتى ينغمس نحاة الأندلس فى النحو البغدادى بجانب انغماسهم فى النحو البصرى والكوفى ويكون ذلك

إيذاناً بأن تتضح شخصيتهم فـي النحو ودراساته ، فقد تعمقوا فـي مصنفاته على مر العصور وتعمقوا فى اتجاهاته[١١٠] .

على أننا نستثنى بعض النحويين الأندلسيين ممن تتلمذوا على يد نحاة الكوفة . علاوة على ذلك أن نحاة البصرة المـأخوذ عنهم كـان تخصصهم فى علم اللغة لا فى علم النحو[١١١] .

والأقشتيق محمد بن موسى (ت ٣٠٧هـ) حسب مـا تشير الروايات[١١٢] هو أول من أدخل كتاب سيبويه الأندلس ، حيث رحل إلى المشرق "فلقى أبـا جعفر الدينورى وانتسخ كتـاب سيبويه من نسخته وأخذه عنه رواية"[١١٣] . ولم تمض مدة على دخول كتـاب سيبويه حتى نرى العلماء هناك يوجهون إليه جل اهتمامهم فتناولوه بالدراسة والتأليف .

وعلى الرغم من أن كتاب الكسائى هو أول الكتب النحويـة المشرقية التى دخلت الأندلس ، فإنه لم يلق من الاحتفاء والتقدير مـا لقيه كتاب سيبويه ، فمن اشهر المهتمين بكتاب الكسائى ولهم شـرح

---

(١١٠) دكتور شوقى ضيف ، المدارس النحوية ، ص٢٩٢ ، دار المعارف القـاهرة ، ط٢ ، ١٩٧٩م .

(١١١) أبو موسى الهوارى والغازى بن قيس رحى إلى المشرق ولقيا الأصمعى وأبـا زيد الأنصار وكلاهما يتسع فى اللغات ، طبقات الزبيدى ، ص١٦٥ ـ ١٧٤ .

(١١٢) الأقشتيق : هو محمد بن موسى بن هاشم بن زيد ، كـان متصرفاً فـى علم الأدب والخبر ورحل إلى المشرق ، فلقى أبا جعفر الحكم وكتـاب طبقـات الكتـاب ، وتوفى ٣٠٧هـ ، طبقات الزبيدى ، ص٢٨١ : ٢٨٢ .

(١١٣) الزبيدى : الطبقات ، ص٢٨٢ .

عليه ، البغل[١١٤] ، والجوفى[١١٥] ، ومحمد بن إبان[١١٦] ، ودريود[١١٧] .

ابن عبدالله بن دحيم "كان إماماً فى معرفة كتاب سيبويه[١١٨] وعبدالله ابن غلبون من أهل قرطبة سكن بلنسية وأقرأ كتاب سيبويه طوال إقامته ببلنسية[١١٩] ، أما أحمد بن يوسف بن حجاج فقد "كان كتاب سيبويه بين يديه لاينى عن مطالعته فى حال فراغه وشغله وصحته وسقمه[١٢٠] . ولشدة اهتمامهم به أصبحت معرفة قراءة الكتاب هى مقياس ثقافة العالم عندهم ، فالعالم الذى "لا يقرأ كتاب سيبويه لا يعرف شيئاً"[١٢١] . على أن اهتمامهم بكتب المشارقة لم يمنعهم من تأليف كتب وتدريسها لطلابهم ، بل لعل علم النحو هو

---

(١١٤) البغل : هو أبو الحسن مفرج بن مالك النحوى ، كان ذا صلاح وفضل ، ونية فى تعليم المتعلمين ، راجع "طبقات الزبيدى" ، ٢٧٣ .

(١١٥) محمد بن سليمان الأنصارى المكفوف ، كان حسن الإفهام منجباً فى التأديب "طبقات الزبيدى" ٢٨٥ .

(١١٦) محمد بن إبان بن سيد : روى عن أبى على القالى ، وحدث بكتاب الكامل ت٣٨٣ هـ ، "بغية الوعاة" للسيوطى ١ / ٢٩١ .

(١١٧) دريود : عبدالله بن سليمان بن المنذر الملقب بدرود ، وربما قيل له : دريود ، كان أعمى ، شرح كتاب الكسائى ت٣٢٥ هـ ، ذكره الزبيدى فى الطبقات ، ٢٩٨.

(١١٨) السيوطى : بغية الوعاة : ١ / ٥٨٤ .

(١١٩) شكيب أرسلان : الحلل ٣ / ١٩٥ نقلاً عن ابن الآبار "الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية" منشورات دار الحياة ، بيروت ١٣٥٥هـ .

(١٢٠) الزبيدى "الطبقات" ٢٩٩ .

(١٢١) السيوطى : بغية الوعاة ، ١/ ٣٣١ .

أول علم يؤلف فيه الأندلسيون كتباً ويدرسونها لأبنائهم ، وكان أول مؤدب أندلسى ألف فى النحو ، وحاضر فى كتابه هو جودى بن عثمان النحوى ، وأطلق على كتابه اسم "منبه الحجارة"[١٢٢] ثم جاء بعده عدد من المؤدبين درسوا مادتهم المؤلفة منهم ابن أبى غزالة ، وأبو بكر بن خاطب ، والبغل ، والبرشقيرى[١٢٣] ، وابن القوطية ، والزبيدى ، وتلميذ ابن القوطية سعيد ابن محمد السرقسطى المنبوذ بالحمار[١٢٤] .

على أن بعضهم ترك مطالعة كتب النحو "وكان يعول على قياسه وتعليله"[١٢٥] ، فهو بعمله هذا حاول إبراز شخصية المؤدب الأندلسى المستقل ، فهو لم يكن ينحاز إلى الاتجاه البصرى أو الكوفى بل اعتمد على قياساته وعلله ، وعمله هذا يعدّ اللبنة الأولى فى بناء ما عرف "بالاتجاه النحوى الأندلسى أما الذين اهتموا بكتاب سيبويه فى عصر سيادة قرطبة فهم أكثر عدداً من المهتمين بكتاب الكسائى ، نذكر منهم عبدالله بن حمود الزبيدى الأشبيلى ابن عم أبى بكر الحسن الزبيدى اللغوى ، جمع شرحاً لكتاب سيبويه (ت

---

[١٢٢] راجع بغية الملتمس ١ / ٤٩٠ (لابن عميرة الضبى) دار الكاتب العربى ١٩٦٧م .

[١٢٣] البرشقيرى : هو عثمان بن إبراهيم كان عالماً بالعربية والحساب مؤدباً بها وله تأليف فى النحو "طبقات الزبيدى" ٣٠٨ .

[١٢٤] سعيد بن محمد السرقسطى : كتاب الأفعال : تحقيق د / حسين محمد محمد شرف مراجعة د/ محمد مهدى علام ، مجمع اللغة العربية ، القاهرة ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م : ١ / ١١ . ابن غزالة : طبقات الزبيدى ، ٢٥٩ .

[١٢٥] الزبيدى : الطبقات : ٣٠٥ .

٣٧٣ هـ = ٩٨٣م) [١٢٦] ومحمد بن الحسن الزبيدى (ت ٣٧٩هـ = ٩٨٩م) [١٢٧] ، له كتابان هما كتاب أبنية سيبويه وكتاب الاستدراك على أبنية سيبويه ، وأحمد بن إبان بن سيد (ت ٣٨٢هـ = ٩٩٢م) ألف شرحاً على كتاب سيبويه[١٢٨] وهارون بن صالح بن جندل (ت ٤٠١هـ = ١٠١٠م) صنف تفسيرًا عن سيبويه[١٢٩] .

هذا وقد اختص بعض المؤدبين الأندلسيين بتأديب كتاب سيبويه حتى أنهم اشتهروا بذلك منهم سعيد حتى إذا ما وطئ القالى أرض الأندلس ساعد على تشييد هذا البناء ، بما أملاه من مؤلفات ، وما حمله معه من كتب ، فتوافد عليه طلبة العلم يأخذون عنه وينشرون علمه .

هذا وقد طلب الأندلسيون النحو ، وأقبلوا عليه إقبالاً شديداً حرصاً منهم على ضبط اللغة التى انتشرت على ألسنة المستعربين، والاستعانة به على تجويد قراءة القرآن والحديث ، فقد روى أن أحمد بن محمد الأعرج (ت ٣٤٥هـ = ٩٥٦م) سمع الحديث ورواه

---

(١٢٦) عبدالله بن حمود الزبيدى : من مشاهير أصحاب القالى ، وهو الذى بات فى مذود الدابة حتى يكون أول وارد على القالى "بغية الوعاة للسيوطى" ٢ / ٤١ رقم ١٣٨٠ .

(١٢٧) ترجمته فى مطمح الأنفس ومسرح التأنس فى ملح أهل الأندلس لبى نصر الفتح بن خاقان ٥٤ الطبعة الأولى ، مطبعة الجوانب القسطنطينية ١٣٠٢هـ .

(١٢٨) أخو محمد بن إبان وروى عنه يوسف بن عبدالله بن خيرون النحوى وغيره "راجع بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس" لابن عميرة الضبى ١٧٠ .

(١٢٩) هارون بن صالح : من أهل قرطبة ، كان من الثقافى فى دينه وعلمه معجم البلدان لياقوت الحموى ٤ / ٤٢٠ .

عن عدد من المحدثين الأندلسيين "ثم مال إلى النحو فغلب عليه ، وقيل : إنه طلب النحو ليستعين به على علم الحديث والفقه"[١٣٠] والسعى وراء المكانة العليا التى ينالها النحوى ، فكأن النحو بالنسبة لهم مقياس علم العلماء[١٣١] .

لهذا نراهم يقبلون على تعلم النحو حتى فاقوا بكثرة عددهم علماء المشرق موطن النحو ، يقول فى ذلك الدكتور سعيد الأفغانى: "فعمدت إلى بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة للسيوطى فأحصيت ما فيه من تراجم فإذا هو نحو من (٢٤٥٠) ترجمة لعلماء من جميع الأقطار الإسلامية ، ووجدت للأندلسيين بينها نحو (٧١٢) ترجمة ، وهذه نسبة عالية جداً أن يبلغ فى هذا المصدر علماء الأندلس الصغير المساحة قريباً من ثلث العالم الإسلامى كله"[١٣٢] .

وابن مالك يتجه إلى البصريين فى بعض المسائل وقد يتجه إلى الكوفيين فى بعضها الآخر . وقد يتردد بين المذهبين فى بعض الأحايين .

والباحث فى آراء ابن مالك ، ومذاهبه فى النحو يراه أنه لا يقتصر على هذا فحسب بل يحاول أن يمزج بين المذهبين البصرى

---

[١٣٠] الزبيدى ، الطبقات ، ٢٩٩ .

[١٣١] المقرى التلمسانى ، "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب" ، ١ / ٢٢٣ ، تحقيق د/ إحسان عباس ، دار صادر بيروت ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م .

[١٣٢] سعيد الأفغانى ، نظرات فى اللغة عند ابن حزم الأندلسى ، ص١٠ : ١١ ، ط٢ ، دار الفكر ، بيروت ١٩٦٩م .

والكوفى فى بعض المسائل ليستخرج من هذا المرج مذهباً ثالثاً ، ويتضح لنا ذلك فيما يأتى :

ـ علة إعراب الفعل المضارع : يرى ابن مالك أن وجه شبه الفعل المضارع بالاسم أنه يعرض به بعد التركيب معانٍ مختلفة تتعاقب على صيغة واحدة كما يعرض ذلك فى الاسم ولا يميز بينهما إلا الإعراب كما فى مسألة "لا تأكل السمك ، وتشرب اللبن" فلما كان الاسم والفعل شريكين فى قبول المعانى بصيغة واحدة اشتركا فى الإعراب لكن الاسم ليس له ما يغنيه عن الإعراب لأن معانيه مقصورة عليه ، والمضارع قد يغنيه عن الإعراب تقدير اسم مكانه ، فلهذا جعل فى الاسم أصلاً والمضارع فرعاً ، قال ، والجمع بينهما بذلك أولى من الجمع بينهما بالإبهام والتخصص ودخول لام الابتداء لأن المشابهة بهذه الأمور بمعزل عما جئ بالإعراب بخلاف المشابهة التى اعتبرتها .

وعلق ابن هشام على كلام ابن مالك بقوله :

وهذا مركب من مذهب البصريين والكوفيين معاً ، فإن البصريين لا يسلمون بقبوله ويرون إعرابه بالشبه ، والكوفيون يسلمون ويرون إعرابه كالاسم . وابن مالك سلم ، وادعى أن الإعراب بالشبه[١٣٣] . وعطف عامل حذف ، وبقى معموله على عامل ظاهر يجمعهما معنى واحد : ويمثل ابن مالك لهذا العطف

---

(١٣٣) السيوطى ، همع الهوامع ، ص١ : ١٨ ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ، ١٣٢٧هـ .

بقوله تعالى : "والذين تبوءوا الدار والإيمـان"[١٣٤] أصلـه كمـا يقـول ابن مالك : واعتقدوا الإيمان فاستغنى بمفعوله عنـه لأن فيـه ، وفـى تبوءوا معنى لازموا وألفوا : وقول الشاعر :

علفتها تبناً وماء بارداً[١٣٥] .

أى وسقيتها والجامع : الطعم

وزججن الحواجب والعيونا[١٣٦] .

أى وكحلن ، والجامع : التحسين .

وجعله الجمهور من عطف الجمل بإضمار فعل مناسب لتعذر العطف . وجعله قوم من عطف المفرد بتضمين الفعـل الأول معنـى يتسلط به عليه فيقدر آثروا الدار والإيمان ونحوه .

قال أبو حيان : فركب ابن مالك من المذهبين مذهباً ثالثاً[١٣٧] .

وابن مالك إمام نحوى ، لـه فـى النحـو نظـرات ، وفـى مسـائله آراء وفى مشكلاته توجيهات ، وله مع ذلك آراء تفرد بها ، ومسائل لم يسبقه أحد إليها ، نظر إلى النحو البصرى نظرة الناقد الممحص الذى لا يرى له طلبة غير الوصول إلى الحق وإلى ما صحّ دليلـه ، ووضحت حجته .

أخذ مسائل النحو البصرى ما قوى دليله ، ورفض منها لم تؤيده الحجـة ، أو يدعمـه البرهـان . وسـار علـى هذا النهـج فــى النحــو

---

[١٣٤] سورة الحشر ٩ .

[١٣٥] السيوطى ، شرح شواهد المغنى ، ص٣١٣ ، المطبعة البهية بمصر .

[١٣٦] شرح ابن عقيل ، ص٢ : ١٨٠ .

[١٣٧] السيوطى ، الهمع ، ص٢ : ١٣٠ .

الكوفى، أخذ ورفض ، وعلل وناقش فوجهته فى المذهبين أن يأخذ أصحهما دليلاً ، وأقواهما حجة ، ويرفض ما لم يكن كذلك ، وإذا رفض لم يرفض اعتباطاً أو تقليداً ، وإنما لأسباب يبسطها وعللٍ يوضحها .

ومع أن النحو كان إلى هذا العصر يدور حول هذين المذهبين ولكل مذهب أنصار وأتباع ، فإن ابن مالك لم يتجه إزاءهما وجهة معينة فقد يكون بصرياً فى بعض المسائل ، وقد يكون كوفياً حين يقتنع بوجهة نظرهم فى بعض المسائل الأخرى ، وأحياناً كان يترك المذهبين ليأخذ بآراء كبار النحاة الذين كانت لهم فى النحو نظرات كالأخفش ، وسيبويه ، والخليل وأبى على الفارسى ، والشلوبين وغيرهم وابن مالك كان مقلداً لهؤلاء ، يتبع خطاهم ويقتفى أثرهم لأنه كان يناقشهم فى كثير من المسائل على أن لابن مالك ىراء خاصة ، وتوجيهات معينة ومسائل معروفة خالف فيها جميع النحاة، بل لم يسبقه أحد إليها .

ففى باب التنازع فى العمل قال ابن مالك :

٢٨١ ـ كيحسنان ويسئ ابناكا وقد بغى واعتديا عبداكا

(كيحسنان) الكاف جارة لقول محذوف ويحسنان فعل وفاعل ، و(ويسئ أبناكا) فعل وفاعل وهذه الجملة معطوفة على التى قبلها وهذا المثال على اختيار البصريين فى إعمال الثانى والإضمار فى الأول ، (وقد) حرف تحقيق ، و(بغى) فعل ماض ، و(واعتديا) فعل وفاعل ، و(عبداكا) فاعل بغى وهذا على اختيار الكوفيين فى إعمال الأول والإضمار فى الثانى وجملة يحسنان هنا فى موضع نصب

بالقول المحذوف والقول ومقوله خبر لمبتدأ محذوف والتقدير ، وذلك كقولك يحسنان إلخ وألف ابناكا وعبداكا للإطلاق ، مثال ما التزم فيه الإضمار أن تقول :

"يحسنان ويسئ ابناك" فتعمل الثانى ، وتضمر فى الأول ، وتقول : "يحسن ويسيئان ابناك" فتعمل الأول ، وتضمر فى الثانى ، وفى قوله :

٢٨٥ ـ نحو أظن ويظنانى أخا زيداً وعمراً أخوين فى الرخا

(نحو) خبر مبتدأ محذوف أو منصوب بفعل محذوف وهو مضاف لقول محذوف ، و(أظن) فعل مضارع يحتاج لمفعولين ، و(ويظنانى) فعل وفاعل ومفعول أول ، و(أخا) مفعول يظنانى الثانى وكان حقه أن يؤتى به ضميراً لكنه تعذر الإضمار وذلك لأن (زيداً) مفعول أول لأظن ، (وعمراً) معطوف عليه ، و(أخوين) مفعوله الثانى فقد استوفى أظن مفعوليه وبقى يظنانى محتاجاً إلى مفعول ثانٍ وهو خبر عن ياء المتكلم ومفسره أخوين وهما تثنية أخ فإن أضمر مفرداً ليطابق المخبر عنه وهو الياء خالف مفسره وهو أخوين وأن أضمر مثنى مطابقاً لمفسره خالف المخبر عنه وهو الياء فعدل به إلى الإظهار ، و(فى الرخا) متعلق بيظنانى وهو مطلوب أيضاً لأظن وجملة يظنانى أخا معطوفة على جملة أظن قبل استيفاء معمولها ولو لم تكن هذه المسألة من باب التنازع لما حسن هذا العطف إذ لا يغتفر العطف قبل تمام الجملة فى غيره . ولما تعذرت المطابقة مع الإضمار وجب الإظهار ، فتقول : "أظن ويظنانى أخا زيداً وعمراً أخوين" ولا تكون المسألة حينئذ من باب

التنازع ، لأن كلا من العاملين عمل فى ظاهر ، وهذا مذهب البصريين .

وفى باب المفعول المطلق : ينتصب المصدر بمثله ، أى بالمصدر ، أو بالفعل ، أو بالوصف ، ومذهب البصريين : أن المصدر أصل ، والفعل والوصف مشتقان منه ، وهو الصحيح ، لأن كل فرع يتضمن الأصل وزيادة .

صاغها ابن مالك نظماً فى قوله :

٢٨٧ ـ بمثله أو فعل أو وصف نـ   صب وكونه أصلاً لهذين انتخب

(أصلاً) فى الاشتقاق ، و(نصب) أى المصدر ، و (لهذين) الإشارة عائدة إلى الفعل والوصف ، و(انتخب) أى اختير وهو مذهب البصريين ، و(بمثله) متعلق بنصب و (أو فعل أو وصف) معطوفان على مثله ، و(نصب) فعل ماض مبنى للمفعول ونائب الفاعل مستتر فيه يعود إلى المصدر وكذلك الهاء من مثله ، و(كونه) مبتدأ والضمير المضاف إليه اسمه ، و(أصلاً) خبره من جهة نقصانه ن و(لهذين) متعلق بأصلاً والإشارة عائدة إلى الفعل والوصف وجملة (انتخب) بالبناء للمفعول بمعنى اختير فى موضع خبر المبتدأ والتقدير وكون المصدر أصلاً للفعل والوصف اختير .

وقال ابن مالك فى الفصل بين المضاف والمضاف إليه :

٤١٨ ـ فصل مضاف شبه فعل ما نـ   صب مفعولاً أو ظرفاً أجز ولم يعب

٤١٩ ـ فصل يمين واضطراراً وجدا   بأجنبى أو بنعت أو ندا

فى البيت الأول المسائل الثلاث لجواز الفصل فى السعة ، اثنان منها يلخصهما الضابط "أن يكون المضاف شبه فعل" فيفصل بينه

وبين ما أضيف إليه بالمفعول أو الظرف ، أما المسألة الثالثة فهى الفصل باليمين "القسم" . أما ما يجوز اضطراراً فذكر فى بقية البيت الثانى ثلاث مسائل هى : الفصل بالأجنبى وبنعت المضاف وبالنداء - وهناك مسألة أخرى لم يذكرها عى (أن يكون المضاف مصدراً والمضاف إليه مفعوله والفاصل فاعله) فكملت أربعة .

ورأى البصريين له وجاهته فى مسائل الضرورة ، فالفصل فيها قلق لا يتفق مع منطق اللغة فى الفهم الميسر .

أما رأى الكوفيين فله وجاهته فى مسائل السعة ، فإن الفصل الوارد فيها لاينبو عنه ذوق مستعمل اللغة ولا يؤدى إلى التعقيد وتعويق فهمه بهذا الفصل .

وتابع ابن مالك البصريين فى قضية الحروف العاملة فى مسألة إضمار (أنْ) :

٦٨٠ - ونصبوا بـ(إذن) المستقبلا إن صدرت والفعل بعد موصلا

٦٨١ - أو قبله اليمين وانصب وارفعا إذا (إذن) من بعد عطف وقعا

(إذن) تنصب المضارع الذى يدل على المستقبل إذا جاءت فى صدر الجواب ، واتصل بـ(إذن) أو قبله القسم اليمين - غذ يباح الفصل به - ويجوز نصب الفعل ورفعه إذا وقعت (إذن) بعد حرف عطف - الواو أو الفاء - باعتبار أن (إذن) بعد العاطف بقى لها الصدارة أو خرجت عنها .

إضمار (أن) وجوباً .

قال تعالى :(وما كان الله ليطلعكم على الغيب) [١٣٨] بعد "اللام" .

(وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفئ إلى أمر الله)[١٣٩] بعد حتى (رب وفقنى فأعمل الخير وأدفع الشر ما استطعت) بعد "فاء السببية" .

(لا تنه عن الخلق قولاً وتفعل مثله) بعد "واو المعية" .

يرى البصريون أن الحرف (أنْ) يضمر وجوباً بعد ثلاثة من حروف العطف ، وهى (حتى ـ فاء السببية ـ واو المعية) .

فهى حروف جر أو عطف لا تنصب الفعل المضارع ، لأن ذلك يتعارض مع قاعدة من قواعد "العامل" وهى (شرط الحرف العامل أن يختص بما عمل فيه من الأفعال أو الأسماء وغير المختص لا يعمل) . وهذه الحروف غير مختصة فالأولان يدخلان على الأفعال والأسماء ـ والثلاثة الأخيرة يمكن أيضاً أن يجئ بعدها الأفعال والأسماء ـ ومن أجل ذلك لم ينصبوا بها المضارع بل قدروا لنصبه (أن : مضمرة) .

وابن مضاء يرفض العمل والعامل وما ترتب عليهما ، ويرى أن المضارع منصوب بعد هذه الحروف لا بها ، وكل جملة يتحقق لها خصائص نصب المضارع بعد هذه الحروف يكون منصوباً دون تقدير ولا تأويل . وهذا خلل منهجى سببه النظم من حيث عدم اتساع طاقته على الوفاء بمنهج واحد مستقيم فهو يضع التفاصيل

---

[١٣٨] سورة آل عمران ١٧٩ .

[١٣٩] سورة الحجرات ٩ .

التى يستغنى عنها المتعلم مرة وفى مرات أخرى يحشو نظمه بالآراء المختلفة سواء للبصريين أم للكوفيين أم للعلماء متفردين من الاتجاهين . والجمع بين اتجاهات النحو العربى ومذاهبه فى بيئاته العلمية المختلفة أعان على نقد النحو العربى بأكمله من خلال الانطباع المأخوذ على المنظومة النحوية وما تبعها من شروح وتقارير وتعليقات .

المنهج التفسيرى القائم على النظر لظاهر الكلام دون تقدير أو تأويل أو البحث عن علة العلة ، هو المنهج الذى رفض على أساسه ابن مضاء النظرية البصرية .. وهو منهج أقرب إلى الوصفية التى تبتعد عن استخدام التعليلات المنطقية ، وعلى هذا الأساس استطاع ابن مضاء أن يتبع ما ترتب على آثار نظرية العامل من تأويلات وتقديرات تؤدى إلى هدم العلاقة بين المبنى والمعنى .

ولذلك كان ابن مضاء أول من ناقش أصول النحو العربى كما وضعته البصرة ، وحاول ردها ، وبذلك وضع يده على ما تصوره من مشاكل النحو وقضاياه التى تحتاج إلى إصلاح وتيسير . ولكن رغم محاولة ابن مضاء هذه لم تذهب سدى ، وإنما كانت مصدر إلهام وتوجيه محاولات الإصلاح والتيسير التى لا تعد فى جوهرها ثورة على النحو العربى وإنما على الطريقة التى وصل بها إلينا النحو العربى وهذه التجربة أعنى المنظومة لم تخرج على قواعد النحو العربى بل التزمت به التزاماً حرفياً بحيث جمعت فى نظمها بين الاتجاهات النحوية فى البيئات العلمية العربية . لم يقف ابن مالك أمام مسائل النحو موقف العاجز ، الحائر ، أو موقف المقلد

التابع ، لأنه استطاع أن يعيش على مائدة هذا العلم فترة من الزمن، لم يكن له هم فيها فيها إلا أن يستوعب كل ما ورد من العرب ويدرس كل ما ورد عن النحاة ، ويقابل هذا بذاك ، ويقارن الأقوال بعضها ببعض فإذا وضحت له فكرة خاصة أو رأى جديدة ، أو نقد بناء ، حرر ذلك كله فى منطق قوى ، وعبارة متينة وأيده بكل ما يملك من أدلة وحجج ، وكان يؤمن فى هذا المجال بقول الجاحظ "ما على الناس شئ أضر من قولهم ما ترك الأول للآخر شيئاً"[١٤٠] .

لهذا فإن لابن مالك آراء انفرد بها ، واتجاهات اختص بها لم يقلد فى هذه الآراء أحداً ممن سبقه ، ولم يتجه فى هذه الاتجاهات وجهة معينة بصرية أو كوفية ، أندلسية أو بغدادية .

وسنكتفى بإيراد بعض المسائل التى انفرد بها ابن مالك لتكون دليلاً يؤيد ما ذهبنا إليه : الضرورة عند ابن مالك[١٤١] ، وورد الاستثناء بعد جمل عطف بعضها على بعض[١٤٢] ، و(إن) إذا خففت لا يليها إلا الماضى[١٤٣] ، ولام الجحود[١٤٤] ، و "ما ،

---

[١٤٠] ابن جنى ، الخصائص ، ج١ ، ص١٩١ ، تحقيق محمد على النجار ، دار الكتب المصرية ، ١٩٥٢ - ١٩٥٦م .

[١٤١] الشيخ خالد الأزهرى ، شرح التصريح على التوضيح ، ج١ ، ص١٤٢ ، مطبعة الحلبى ، القاهرة (د . ت) .

[١٤٢] السيوطى ، الاقتراح ، ص١٤ ، حلب ١٣٥٩هـ .

والسيوطى ، الهمع ، ج١ ، ص٢٢٧ .

[١٤٣] السيوطى ، الهمع ، ج١ ، ص١٤٢ .

[١٤٤] الأشمونى ، ج٣ ، ص٢٩٢ : ٢٩٣ .

ومعمهـــا"[١٤٥]، و "ونـــى ورام بمعنـــى زال"[١٤٦] ، والعلـــم والضمير[١٤٧]، والعطف بأم المنقطعة[١٤٨] ، والواو قد تستعمل بمعنى أو[١٤٩] ، وتقدم المستثنى على صفة المستثنى منه[١٥٠] ، وعلة الفعل المضارع[١٥١] .

غير أن طاقة النظم التى عرضنا لها عرضاً مفصلاً فى الفصل الثانى حدتّ من إظهار الآراء التى انفرد بها ابن مالك وقام بهذه الوظيفة شراح الألفية وكتب ابن مالك التالية على تأليف الألفية.

ولطبيعة المنظومة المختصرة فى لغتها وذات الإيقاع السريع لنظمها على بحر الرجز بأضربه وأعاريضه الكثيرة نجد أن الباب النحوى أو الظاهرة اللغوية تخطر فجأة على المتعلم دون تمهيد كأن يقال مثلاً إن العلامات أنواع منها الأصلى كالحركات القصار (الفتحة والكسرة والضمة) ومنها ما ينوب عنها فى بعض الأسماء العربية وهى المسماة بالعلامات الفرعية (كالألف والواو والياء) وهكذا والحقيقة أن هذه المهمة لم تؤدها الألفية أو النظم بل تركت لجهد الشراح وأصحاب الحواشى والتقارير وذلك ما صنعه

---

(١٤٥) الأشمونى ، ج٤ ، ص١٢ .

(١٤٦) السيوطى ، الهمع ، ج١ ، ص١١٢ .

(١٤٧) السيوطى ، الهمع ، ج١ ، ص٥٦ .

(١٤٨) خالد الأزهرى ، التصريح ، ج٢ ، ص١٤٤ ، وابن هشام ، مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب ، ج٢ ، ص٤٤ ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد القاهرة (د-ت) .

(١٤٩) ابن هشام ، المغنى ، ج٢ ، ص٣٣ .

(١٥٠) الأشمونى ، ج٢ ، ص١٤٩ .

(١٥١) السيوطى ، الاقتراح ، ص٦٢ .

الأشموني في باب الإعراب بالحركات في جمع المؤنث السالم والممنوع من الصرف[١٥٢] .

والمبتدأ والخبر[١٥٣] والحروف العاملة عمل ليس[١٥٤] وأفعال المقاربة[١٥٥] ولا النافية للجنس[١٥٦] وما لا ينصرف وغيرها .

وهذا مثال لذلك من باب المبتدأ والخبر :

المبتدأ هو الاسم العارى عن العوامل اللفظية غير الزائدة فخبراً عنه أو وصفاً رافعاً لمستغنى به فالاسم يشمل الصريح والمؤول نحو (وأن تصوموا خير لكم) [١٥٧] وتسمع بالمعيدى خير من أن تراه والعارى عن العوامل اللفظية مخرج لنحو الفاعل واسم كان وغير الزائدة إدخال نحو (بحسبك درهم) وهل من خالق غير الله ومخبراً عنه أو وصف إلخ مخرج لأسماء الأفعال والأسماء قبل التركيب ورافعاً لمستغنى به ليشمل الفاعل نحو :

أقائم الزيدان ونائبه نحو : مضروب العبدان .

وخرج به نحو اقائم من قولك : اقائم أبوه زيد وأو في التعريف للتنويع لا للترديد أى المبتدأ نوعان : مبتدأ له خبر ومبتدأ له مرفوع أغنى عن الخبر وقد أشار إلى الأول بقوله :

---

(١٥٢) شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك ، ج١ ، ص٩٢ .

(١٥٣) شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك ، ج١ ، ص١٨٩ .

(١٥٤) المصدر السابق ، ج١ ، ص٢٤٧ .

(١٥٥) المصدر السابق ، ج١، ص٢٥٨ .

(١٥٦) المصدر السابق ، ج٢ ، ص١٦٩ .

(١٥٧) البقرة ١٨٤ .

مبتدأ زيد وعاذر خبر إن قلت زيد عاذر من اعتذر[١٥٨] .

والحملات الشديدة من النقد التى طالت النحو العربى والنحاة فى مراحله المختلفة أصابت أيضاً المنظومة النحوية إصابات مباشرة .

ويرى الدكتور محمد كامل حسين أنه من أكبر الدلائل على تدهور علوم اللغة ما فعله ابن مالك حين وضع ألفيته المعروفة . وليس من المبالغة أن نقول إنها ساعدت بدورها فى هذا التدهور ، وعنده أنها عادت بأضرار جسيمة على اللغة العربية . وهى على أحسن حال يمكن تلخيصها على أنها النحو للنحويين المحترفين والعناية بها من الأسباب التى باعدت بين النحويين والكتاب .

الأضرار التى ألحقتها ألفية ابن مالك باللغة العربية كثيرة . منها أنها نظم سقيم لا يقبله من عنده أقل قدر من الذوق الأدبى . ولا أظن أن أحد ممن حفظوها يستطيع أن يكتب شيئاً ذا بال فى غير النحو . وهى من الأمور التى ساعدت على انطواء النحويين على أنفسهم كأن النحو بمعزل عن كل ما يفيد كلاً من الكاتب والأديب ، ثم إنها ركزت جهد المتعلمين على درس القواعد كأنها غاية فى ذاتها . والتأكيد على قواعد اللغة والحاجة إلى تذكر تفاصيلها يعوق المتعلمين عن الانطلاق فى التفكير ، ومن هنا أصبح العلم باللغة احترافاً .

الألفية مجموعة طلاسم لا تفهم إلا بعد شرحها شرحاً وافياً ، ولا يفيد أحد منها إلا بعد شرح هذا الشرح حتى إذا بلغ الإنسان

---

[١٥٨] المصدر السابق ، ج١ ، ص١٨٩ .

جوهر القاعدة وجد أنها لا تستحق شيئاً من هذا الجهد . قيل إنها سهلت العلم بالقواعد ، ولكن فائدة هذا النظم تضيع بين سوء النظم وشرح الشراح ، ولذلك تعددت الشروح والتقارير والحواشى . ولولا وجود الألفية لا ستطعنا أن نحتفظ من قواعد اللغة بما نكون فى حاجة إليه . والألفية ظاهرة من ظواهر الانحطاط فى علوم اللغة ، وهى كذلك سبباً من أسبابه[١٥٩] .

إن المنظومة النحوية وشروحها وحواشيها والتقارير التى كتبت عليها لم تحاول أن تتخلص كلية من المنهج الذى سلكه الأقدمون ، بمعنى أن المرفوع ظل ثابتاً لدى كل النحاة المتأخرين ، وبالتالى تأخر المجرور دائماً فى الترتيب وهى الظاهرة نفسها التى نجدها فى كتب الأقدمين .

يقول الدكتور أحمد طاهر حسنين :

"إن أحداً من هؤلاء النحاة لم يحاول أن يمس جوهر تصنيف القدماء للنحو أو نقول جوهر جدولتهم لموضوعاته ، بمعنى أنه حتى الآن لم يصدر كتاب نحوى يقدم المجرور على المرفوع والمنصوب"[١٦٠] .

---

[١٥٩] الدكتور محمد كامل حسين – اللغة العربية المعاصرة – ص٥٥ : ٥٦ ، دار المعارف بمصر – ١٩٧٦م .

[١٦٠] أحمد طاهر حسنين – نظرية الاكتمال اللغوى عند العرب – ص٣٢٢ . ط القاهرة ١٩٨٧م .

والحقيقة أن باب الإضافة وباب الجر قدم على المنصوبات في كتاب الواضح للزبيدى وكثير من أوجه القصور في المختصرات فقد عولجت عند ابن هشام وغيره .

ألف ابن هشام (أوضح المسالك على ألفية ابن مالك) وهو إيضاح لألفية ابن مالك قريب المأخذ بعيد عما يجئ في المتون المنظومة من التواء في العبارة أو غموض في المعنى . وقد قال في مقدمته : "إن كتاب الخلاصة الألفية في علم العربية كتاب صغر حجماً وغزر علماً غير أنه لإفراط الإيجاز قد كاد يعدّ من الألغاز" .

"وقد أسعفت طالبيه بمختصر يدانيه وتوضيح يسايره ويباريه ، أحُلُّ به ألفاظه وأوضح معانيه ، وأحلل به تراكيبه وأنقح مباينه ولا أخلى منه مسألة من شاهد أو تمثيل ، وربما أشير إلى خلاف أو نقد أو تذليل ولم آل جهداً في توضيحه وتهذيبه وربما خالفته في تفصيله وترتيبه" .

وقد شرح هذا الكتاب الشيخ خالد الأزهرى وعلق عليه الشيخ يس العليمى الحمصى بحاشية طبعت مع الشرح . فإذا أخذنا المنظومة بعدد من الملاحظ والعيوب فحلقة النحو العربى التى تكتمل بابن هشام وغيره قد عالجت كثيراً من القصور ، والمنظومة النحوية تعدّ حلقة من حلقات النحو العربى ومرحلة من مراحل التأليف فيه أثرت فيما تلاها من مؤلفات .

ومن محاولات إصلاح المؤلف نفسه لمنهج المنظومة تأليفه تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد الذى جمع فيه بين خبرات نحاة المغرب ونحاة المشرق حيث درس النحو فترة شبابه في الأندلس مسقط رأسه - ثم رحل إلى الشرق واستوطن الشام وتأثر

بعلمائه[١٦١] وقد تعددت مؤلفاته النحوية ما بين منظوم ومنثور ومتن وشرح ومن المرجح أن كتابه (تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد) كان آخرها ميلاداً وهذا واضح النسبة لمتنه المسمى (الفوائد) أو بعدّ (التسهيل) - كما ينطق عنوانه - بمثابة الشرح والتكميل له لهذا جاء منهجه فى التسهيل خلاصة لتجاربه ودراساته الطويلة[١٦٢] ولخبراته فى تدريس العربية التى تصدر لإقرائها زمناً فى حلب ثم فى دمشق[١٦٣] .

وقد غلب الطابع التعليمى أو الدارسى على منهج ابن مالك فى بناء كتابه وفى طريقة تقديمه لمسائل النحو وربط بعضها ببعض وقد نظم رؤوس المسائل فى أبواب وفروعها فى فصول[١٦٤] .

وقد بلغت جملة الأبواب ثمانين والفصول مائتين وأحد عشر ، تناول مسائل النحو فى سبعة وستين باباً أعقبها بمسائل الصرف وبعض المباحث الصوتية فى ثلاثة عشر باباً .

وعلى الرغم من أن ابن مالك تأثر فى منهجه هذا بالمؤلفات التى تقدمت عليه ، وخاصة (الألفية) لابن معطى (والكافية) لابن الحاجب[١٦٥] فقد كانت له شخصيته المتميزة وجهده الخاص الذى ميز كتابه فجاء صورة واضحة لمنهج المعلم الذى أتقن فنه وأحاط بتفاصيله والمميزات التى يمكن أن تعدّ لكتاب التسهيل هو وضوح

---

(١٦١) نشأة النحو ، محمد الطنطاوى ، ص٢٢١ ، ط٢ القاهرة ١٩٦٩م .

(١٦٢) تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد ابن مالك ، مقدمة المحقق ، ص٤٤ .

(١٦٣) نشأة النحو ، محمد الطنطاوى ، ص٢٢١ .

(١٦٤) تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد ، مقدمة المحقق ، ص٤٤ .

(١٦٥) المرجع السابق ، ص٤٣ : ٤٤ .

الترتيب على مستوى الباب وفصوله بشكل خاص ومحاولة لمح جهات الصلة والارتباط بين الباب والباب ، بالإضافة إلى وضوح الأسلوب والقرب به من مستوى الدارسين . وإن كان يؤخذ عليه تأخير مباحث الصرف والأصوات إلى ما بعد مباحث النحو ، وهو فى هذا متأثر بمن سبقوه وكذلك عدم محاولته تقسيم مباحث النحو تقسيماً إجمالياً ـ كما فعل الزمخشرى مثلاً فى المفصل لتتضح به صلة الأبواب بعضها ببعض . وهذا ما دعاه إلى القول على ابن الحاجب بأنه تأثر بنحوى ضعيف ويقصد بذلك الزمخشرى الذى عدل هو بنفسه عن نهجه فى التأليف بالرغم من أن موضوعات النحو وقضاياه واحدة عند كل منهما غير أن الزمخشرى المفسّر البلاغى يتناول مفردات النحو على الوصل أى على اتصال الوحدات بعضها مع بعض فى سياق متصل وطبيعة دراسات البلاغيين تقوم على الفصل والوصل غير أن طبيعة تأليف المختصرات لا تتيح للمصنف فرصة تناول الجمل والتراكيب وخصائص العلائق بين مفرداتها فيكون التركيز فيها على خصائص المفردات وهذا الأمر هو ما حدث فى ألفية ابن مالك . إن التراث النحوى ليشهد للسابقين بدورهم فى تغيير النمط الذى جاء عليه كتاب سيبويه ، ويأتى الزمخشرى فيعيد النظر فى التصنيف المألوف ، وابن عصفور يعيد النظر فى الهيكل العام ويصب القواعد والأحكام فى هيكل جديد ، ويجمع ابن مالك رؤوس المسائل فى أبواب ويشق الأبواب إلى فصول يتناول فيها الجزئيات . ويعمد ابن هشام إلى لف المبانى والأقسام معالجاً بذلك نشر القواعد والأحكام .

نتائج

ومن العرض والتحليل السابقين يمكن أن نسجل النتائج الآتية :

١ ـ لكثير من أبيات الألفية وجهان من القراءة ومن ثمّ التفسير والتحليل وبيان وظائف الوحدات إن لم يكن لذلك تأثير على القاعدة النحوية بفضل تعدد الشروح .

٢ ـ قد يشغل البيت الواحد من النظم ثلاث حالات من الباب الذى يعرض له وقد يأتى البيت أو البيتان وليس بهما جديد سوى التمثيل.

٣ ـ يعد بابا نائب الفاعل والمفعول المطلق من الأبواب التى تتداخل فيها مباحث الصرف مع أبواب النحو بحيث يتناولها الناظم تناولاً مفصلاً يشغل كماً كبيراً من النظم الذى أفرده أصلاً للنحو .

٤ ـ استعمل الناظم جملة تتكرر فى كثير من أبياته وفى كثير من أبواب النحو شغلت شطراً كاملاً وهى (فما أبيح "أفعل ودع ما لم يُبح) بالرغم من أن الباب يحتاج إلى العديد من الأمثلة والإيضاحات كما أن الغباحة والمنع إنما يصدران عن النحاة المتقدمين والأعراب الناطقين وهذا ما لا يتاح للمتعلم لمبادئ النحو .

٥ ـ إن نظم قواعد النحو يعدّ وسيلة تعليمية ثانوية لا يَعْدُ بسط قواعد النحو وتوضيحه ولا يمكن عدها وسيلة تعليمية أساسية أُولَى لجوء كل من ابن مالك وابن معطٍ إلى وضع مؤلفات فى النحو تشرح ما نظموه شعراً .

٦ ـ تكون العبارات الدالة على المعيارية أجلى ما تكون فى المنظومة النحوية مثل (دع ذا ـ خذ ـ ابح ـ امنع ـ اجز ـ انصب ـ اجرر ـ افتح وضم) .

٧ ـ نتيجة لغلبة الجانب المعيارى فى المنظومة تجد الأفعال الدالة على ذلك مؤكدة بالنون ثقيلها وخفيفها التى تقلب ألفاً للضرورة .

٨ ـ ليس للناظم منهج فى التمثيل أو نظم القواعد فقد يستثمر البيت فى قاعدة وتمثيل وقد يستثمر الشطرين فى مثالين قد يستثمر الشطرين فى شاهد شعرى منظوم على أحد صور الرجز كما فى باب المفعول له بالرغم من أنه يجترئ فى بعض الشواهد ولو كانت فى آية قرآنية مثل : (فإمّا منّا) .

٩ ـ وظف ابن مالك النظم فى خدمة الطرق التعليمية وذلك بأن ضمّن النظم التمثيل والاستشهاد .

١٠ ـ لم يستطع ابن مالك فى منظومته أن يبسط منهجه النحوى الذى وضعه فى كتبه الأخرى بالرغم من أن المنظومة اتسعت للاستشهاد والتمثيل وأقوال العرب وآراء

النحاة والضرائر الشعرية والمصطلحات النحوية والاستعمالات الخاصة بالقبائل وكل ما لا يتطلبه المنهج التعليمى .

١١ ـ حصر النحاة أوجه الضرورة الشعرية فيما يتعلق بالبنية والإعراب لكن النظم يضطر الشاعر لأن يتصرف فى هيئة التركيب بأكبر قدر من الاتساع وذلك ما لم يمنعه النحاة ولذا فهو يعدّ من الضرائر غير المحصورة فى كتب النحو والضرائر .

١٢ ـ تعدّ بساطة القاعدة النحوية ووضوح النظم شريطتا تحقق جدوى المنظومة وسيلة تعليمية بديلة .

١٣ ـ حققت المنظومة النحوية مطلبين متعارضين هما اختصار لغة القواعد وشمول أبواب النحو ومسائله وقضاياه جميعاً .

١٤ ـ مر تيسير النحو بمراحل هى تصنيف المختصرات والتذييل فى محاور التصنيف ونظم القواعد شعراً .

١٥ ـ أدى ظهور كتب مستقلة مفردة فى كل من النحو والتصريف والحروف إلى تشقيق أبواب النحو وتفريعها كما أدى إلى تعدد محاور التصنيف فى كتب النحو تطويراً للنهج الذى نهجه كتاب سيبويه .

١٦ ــ قصرت طاقة النظم عن الوفاء بالحدود والتعريفات واقتصرت على ذكر المصطلح يتبعه المثال أو جزء من الشاهد .

١٧ ـ اعتمدت المنظومة النحوية على ذاكرة الدارس وعلى أنه يتقبل بالحفظ والموسيقى ما لم يتقبله بالنثر أو أنها مفكرة يتذكر بها ما فزع من دراسته وحفظه سابقاً .

١٨ ــ المعيارية ضرورة تعليمية استوجبها عمل النحاة واللغويين بالتأديب في قصور الخلفاء أو في المساجد العامة.

المصادر والمراجع

- الأدب وفنونه د / محمد مندور معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ١٩٦٣م .

- الأشباه والنظائر للسيوطى حيدرآباد ١٣٦١هـ .

- أصول النحو العربى فى نظر النحاة ورأى ابن مضاء وضوء علم اللغة الحديث د/محمد عيد ، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٨٩م .

- الأعلام لخير الدين الزركلى ، القاهرة ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٤م.

- الاقتراح للسيوطى ، حلب ١٣٥٩هـ .

- الإيضاح فى علل النحو للزجاجى ، تحقيق مازن المبارك ، دار العروبة ١٩٥٢ م .

- البحث اللغوى عند العرب د/أحمد مختار عمر ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧١ م .

- بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس لابن عميرة الضبى ، دار الكتاب العربى ، ١٩٦٧م .

- بغية الوعاة للسيوطى تحقيق محمد أبو الفضل غبراهيم ، ط دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م ، القاهرة .

- تاريخ بغداد للبغدادى ، مطبعة السعادة القاهرة ، ١٩٣١م .

- التوجيه الأدبى ، د/طه حسين وآخرون ، مطابع دار الكتاب العربى ، القاهرة ١٩٥٤م .

- ثلاث رسائل لابن جنى نشرها وجيه فارس الكيلانى ، مطبعة لنن مصر .

- الجمل فى النحو للزجاجى ، تحقيق د /على توفيق الحمد ، ط٢ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٥م .

- حديث الأربعاء د /طه حسين دار المعارف مصر ، ١٩٥٨م .

- الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية لابن الآبار ، منشورات دار الحياة ، بيروت ١٣٥٥هـ .

- الخصائص لابن جنى ، تحقيق محمد على النجار ، دار الكتب المصرية ، ١٩٥٢ ـ ١٩٥٦م .

- رسائل الجاحظ ، اختيار عبد الله حسان ، الخانجى مصر ، ١٩٧٩م.

- شذا العرف فى فن الصرف للشيخ أحمد الحملاوى ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى ، ط٢١ ، القاهرة ١٩٧٩م .

- شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك دار إحياء الكتب العربية القاهرة .

- شرح التصريح على التوضيح الشيخ خالد الأزهرى ، مطبعة الحلبى ، القاهرة (د . ت) .

- شرح شذور الذهب لابن هشام ، تحقيق محمد محيى الدين، ط١٥ ، ١٩٧٨م .

- شرح شواهد المغنى للسيوطى ، المطبعة البهية بمصر .

- شرح قطر الندى (لابن هشام) بهامش حاشية السجاعى على شرح القطر المطبعة العثمانية بالقاهرة ١٣٢٢هـ .

- شعراء النصرانية بعد الإسلام ، لويس شيخو ، مطبعة الاباء اليسوعيين ، بيروت ، ١٩٢٦م .

- طبقات النحويين واللغويين للزبيدى ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف مصر ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٣م .

- العمدة لابن رشيق القيروانمى ، تحقيق محيى الدين عبد الحميد ، ط٣ ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٦٣م .

- عيار الشهر لابن طباطبا العلوى ، تحقيق د/طه الحاجرى و د/ زغلول سلام ، شركة فن الطباعة القاهرة ، ١٩٥٦م .

- الفصول الخمسون لابن معطٍ ، تحقيق د/ محمود الطناحى ، ١٩٧٧م .

- فن الموسيقى فى الشعر العربى د/محمود على السمان ، الشركة المصرية للطباعة والنشر ١٩٧٨م .

- فنون التقعيد وعلوم الألسنية د/ ريمون طحان ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ١٩٨٣م .

- الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، د / شوقى ضيف ، ط٣ ، بيروت ١٩٥٦م .

- الفهرست لابن النديم ، المكتبة التجارية بالقاهرة ، ١٣٤٨هـ - ١٩٢٨م .

- فى الأدب الجاهلى د / طه حسين ، دار المعارف مصر ، ١٩٦٤م .

- قضية الشعر الجديد د./ محمد النويهى ، معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٦٤ م .

- الكامل للمبرد ، نشر وليم رايت ليبزج ، ١٨٦٤م .

- الكتاب سيبويه ط عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٦٦ ـ ١٩٧٧م.

- كتاب الأفعال للسرقسطى ، تحقيق د / حسين محمد محمد شرف مراجعة د/ محمد مهدى علام ، مجمع اللغة العربية ، القاهرة ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م .

- كتاب تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد لابن مالك حققه وقدم له محمد كامل بركات ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٨م .

- كشف الظنون حاجى خليفة استانبول ١٩٤٣ ـ ١٩٦٢م .

- اللغة العربية مبناها ومعناها د/ تمام حسان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ط ١٩٧٩م .

- اللغة العربية المعاصرة د/ محمد كامل حسين ، دار المعارف مصر ١٩٧٦م .

- اللمع فى العربية لابن جنى تحقيق د/ حسين شرف ، القاهرة .

- المدارس النحوية د / شوقى ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ط٢ ١٩٧٢م .

- المدرسة النحوية فى مصر والشام فى القرنين السابع والثامن من الهجرة د/ عبد العال سالم مكرم ، دار الشرق القاهرة ، ط١ ، ١٩٨٠م .

- مطمح الأنفس ومسرح التأنس فى ملح أهل الأندلس ، لبى نصر الفتح بن خاقان ، ط١ ، مطبعة الجوائب القسطنطينية ، ١٣٠٢هـ .

- معجم الأدباء ياقوت الحموى ، مكتبة عيسى البابى الحلبى ، ١٩٣٨م .

- معجم المؤلفين عمر كحالة ، دمشق ، ١٩٥٧م .

- معجم البلدان لياقوت الحموى ، دار صادر بيروت ١٩٥٥م.

- مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة د . ت .

- المفصل فى علم العربية للزمخشرى ، دار الجيل ، بيروت لبنان (د . ت) .

- المقتضب المبرد ، تحقيق عبد الخالق عضيمة ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ط٢ .

- مقدمة ابن خلدون ، ط دار إحياء التراث العربى ، بيروت، ١٩٧٨م .

- مقدمة ديوان نداء القمم ، د/ يوسف خليفة ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٥٦م .

- المقدمة فى النحو للجاشعى ، تحقيق د/ حسن شاذلى فرهود، دار التراث بالقاهرة ١٩٨٠م .

- المقرب لابن عصفور ، تحقيق أحمد عبد الستار الجوارى، وعبدالله الجبورى ، مطبعة العانى بغداد ، ١٩٧٢م .

- الممتع فى التصريف ابن عصفور ، تحقيق د/ فخر الدين قباوة ، ط٣ ، بيروت ١٩٧٨م .

- نحو الألفية د / محمد عيد ، قسمان القسم الأول مكتبة الشباب ط١ القاهرة ١٩٩٠م ، والقسم الثانى ط ١٩٩٢م .

- النحو التعليمى فى التراث العربى د/ محمد إبراهيم عبادة ، منشأة المعارف الإسكندرية ١٩٨٧م .

- نزهة الألباء فى طبقات الأدباء ، كمال الدين الأنبارى ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٦٧م .

- نشأة النحو محمد الطنطاوى ، ط٢ ، القاهرة ١٩٦٩م .

- نظرات فى اللغة عند ابن حزم الأندلسى سعيد الأفغانى ، ط٢ ، دار الفكر ، بيروت ١٩٦٩م .

- نظرية الاكتمال اللغوى عند العرب ، للدكتور أحمد طاهر حسنين ، ط١ ، القاهرة ١٩٨٧م .

- نفح الطيب للمقرى ، ط المطبعة الأزهرية المصرية ١٣٠٢هـ ، وط أخرى بتحقيق د/ إحسان عباس ، دار صادر بيروت ١٣٨٨هـ ــ ١٩٦٨م .

- همع الهوامع فى شرح جمع الجوامع ، السيوطى ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ، ١٣٢٧هـ .

- الواضح فى علم العربية للزبيدى ، تحقيق د/ أمين على السيد ، دار المعارف ١٩٧٥م .

- وفيات الأعيان ، لابن خلكان ، ١٣١٠هـ .

الفهرست